

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية

المؤتمر الدولي التاسع

٢١ - ٢٢ تشرين ثاني ٢٠٠٣

# التاريخ الاجتماعي الفلسطيني

بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات

تموز ٢٠٠٤

التاريخ الاجتماعي الفلسطيني  
بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات  
الطبعة الأولى - تموز/ يوليو - 2004  
© جميع الحقوق محفوظة  
ISBN 9950-316-16-2



معهد ابراهيم أبو لغد للدراسات الدولية  
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

جامعة بيرزيت، ص ب ١٤، بيرزيت - فلسطين  
هاتف: ٢٩٨٢٩٣٩ ٢ ٩٧٢ +، فاكس: ٢٩٨٢٩٤٦ ٢ ٩٧٢ +  
بريد الكتروني: giis@birzeit.edu  
صفحة الكترونية: <http://home.birzeit.edu/giis>

طبع هذا الكتاب بدعم من:  
الوكالة السويسرية للتنمية والتعاون

تحرير وتدقيق النص العربي: وسام رفيدي  
تحرير وتدقيق النص الإنجليزي: دعاء النخالة، منى التميمي وهيدا كوجيستك

نسق للمؤتمر: روجر هيوك ومجدي أبو زيد  
فريق العمل: دعاء النخالة، ناهدة صباح وعبير شاهين

تصميم الغلاف والإخراج الفني: مؤسسة الناشر للدعاية والإعلان

---

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها  
معهد ابراهيم أبو لغد للدراسات الدولية.

# المحتويات

## كلمة رئيس الجامعة

حنا ناصر ..... ٥

## كلمة الإفتتاح

مجدي المالكي ..... ٩

## الخبر والرواية التاريخية في حكايات ألف ليلة وليلة

خليل عثمانة ..... ١٣

## أسوار القدس الحقيقية والمتخيلة

سليم تماري ..... ٢٧

## تجربة الانسان الفلسطيني في اللجان القومية عامي ١٩٣٦ و١٩٤٧

عماد البشتاوي ..... ٣٧

## « شو تقول يا طير »

سونيا نمر ..... ٥١

## نوح ابراهيم الشاهد والشهيد

سميح شبيب ..... ٥٧

## Memory Research and the Autobiographical Past: Theories, Methods and Strategies of the Oral Historian of Palestine

Thomas M. Ricks ..... 5

|   |     |
|---|-----|
| <b>From the Individual to the Wider Society: Translating Oral Accounts into Written Histories</b>               |     |
| Kenneth Brown. ....   | 15  |
| <br>  |     |
| <b>An Attempt of Reconstruction of the pre-48 Arab Commercial Center of Jerusalem</b>                           |     |
| George Hintlian. ....   | 25  |
| <br>  |     |
| <b>Survivors of the 1948 Expulsions: A Second Call for a ‘Race Against Time’</b>                                |     |
| Rosemary Sayigh. ....   | 35  |
| <br>  |     |
| <b>From Haifa to Camden Town – and Back Again</b>   |     |
| Barbara Harlow. ....  | 47  |
| <br>  |     |
| <b><i>Karamat</i> Stories among Palestinians</b>  |     |
| Sharif Kanaana. ....  | 63  |
| <br>  |     |
| <b>Dramas of Youth: The Intifada Generation and Its Secret Memories</b>   |     |
| John Collins. ....  | 71  |
| <br>  |     |
| <b>The Palestinian City Reborn: the Middle Class as Historical Agent</b>  |     |
| Lisa Taraki. ....   | 89  |
| <br>  |     |
| <b>Worshipping in Times of Crisis: Remembering the Past and Constructing the Present</b>                        |     |
| Sossie Andezian. ....   | 99  |
| <br>  |     |
| <b>Nazi Agrarian Colonisation of the Zamojszczyzna (South-eastern Poland). Documents, Memories and Silences</b> |     |
| Edouard Conte. ....   | 119 |

## كلمة رئيس الجامعة

حنا ناصر

يسعدني جدا أن أرحب بالضيوف الكرام، وخاصة الذين قدموا من الخارج، والبعض منهم أصدقاء شخصيون.. والأصدقاء ليسوا غرباء عنا، فبعضهم عمل في جامعة بيرزيت سابقا، والآخر تربطه بجامعة بيرزيت علاقة قوية. بالتالي أشكر المعهد على إتاحتها الفرصة لنا لهذا اللقاء. أهلا وسهلا بكم جميعا.

وأغتنم الفرصة لأحيي معهد أبو لغد للدراسات الدولية على هذا النشاط الأكاديمي، وعلى عقد مؤتمرهم الدولي التاسع في هذه الظروف الصعبة. وأنا شخصا سعيد أن يعالج المؤتمر التاريخ الاجتماعي الفلسطيني بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات» ولا أعرف من هو مبتكر هذا العنوان الشيق، ولكنني أعترف أنه عنوان جذاب يعيد إلى أذهان البعض منا - من شاب شعر رأسه - حكايات جميلة عن تاريخنا، اختلطت في ذات الوقت بكابوس حكايات حزينة ما زلنا نعيشها حتى الآن.

وفي الحديث عن الكابوس لا بد أنكم عايشتم مظاهر من الكابوس على حازر سردة الشهير! وعلى هذا الحازر حكايات وحكايات. المرأة التي تلد على الحازر، والمريض

الذي يموت على الحاجز، والعرس الذي يجري على الحاجز، والأستاذ الذي يدرس على الحاجز! وتسمع الناس وهم ينتقلون عبره يتفننون بالتعبير عن سخطهم على كل من له علاقة بهذا الوضع المأساوي الذي عشناه خلال الثلاث سنوات الماضية، والتعبير عن السخط أصبح جزءاً من التراث والحكايات المؤلمة في تاريخنا.

ولكن من الحكايات الجميلة أن هذه الحواجز وهذه المعاناة لم تشنا في يوم واحد عن القيام بعملنا وتحمل مسؤولياتنا، بل على العكس زادت من الإصرار بأن التحدي يولد تحدّ أكبر منه، وبهذا تغلبنا على هذه المصاعب. ولم نخسر أياماً في بيرزيت مثلاً إلا عندما كان الحاجز مغلقاً كلياً.

وفي الإشارة إلى بيرزيت - هذه الجامعة المتواضعة - فلا بد أن ندرك أنها هي أيضاً جزء من أرشيف فلسطين. وأعتقد أنه تقع على البعض منا مسؤولية أرشفة تاريخها - بحلوها ومرها، فحكايتها هي جزء من حكايات الشعب الفلسطيني منذ تأسيسها عام ١٩٢٤، وتطورها لتصبح أول جامعة فلسطينية هو جزء من تاريخ النضال الفلسطيني في ظروفه الصعبة.

وما يهمني في هذا السياق أن لا ندع الحكايات تغمض أعيننا عن واقعنا المرير. ولا أرغب أن أرى فلسطين تصبح فقط حكايات وتراثاً - بل علينا أن نركز على التراث والحكايات لبنني واقعاً جديداً يؤمن لنا موقعا متميزاً في عالمنا المعاصر.

وأنا مدرك أن الواقع الذي نصبو إليه ليس بالأمر البسيط، فما أن نلملم جراحنا ونقترب من الاستقرار حتى تزداد الهجمة علينا، فأصبح تراثنا مصبوغاً بكلمات وتعابير جديدة - إسمها العنف والإرهاب. ولكن العنف لدى الشعب الفلسطيني ظاهرة جديدة لم نشهدها إلا بعد سنوات بغیضة من الاحتلال، عندما بدت كل الحلول مغلقة أمامه في حل قضيته. وعلينا أن نناضل لنمحو هذه التعابير من القاموس المستعمل لوصف شعبنا، فشعبنا شعب مسالم، ضاعت بلاده ليس لأنه ارتكب جرماً أو خطأ ولكن لأن غيره اعتدى عليه. هذه ببساطة قضية الشعب الفلسطيني، وهذه حكايتنا - نورثها من جيل إلى جيل حتى يرى الحق النور، وتصبح حكايتنا أن شعب فلسطين بات يعيش في وطنه وعلى أرضه مثل الشعوب الأخرى. حكاية بسيطة نأمل أن يعيشها البعض منا على الأقل.

وإذا أخذتنا الحكايات إلى منعطف آخر - فعلينا أن لا ننسى حكاية أخرى ومن نوع آخر تلاحقنا باستمرار - ألا وهي حكاية إسرائيل وديمقراطيتها. أنا لا أتحدى هذه الحكاية لأنها بالفعل واقعية، ولكن لا يجوز الارتكاز على الديمقراطية لاتخاذ قرارات غير شرعية أو منافية لحقوق الإنسان. لقد قامت إسرائيل ببناء المستوطنات وصادرت الأراضي وضمت القدس ووضعت الحواجز وبنّت السور العنصري، وكل هذه الأمور غير الشرعية تمت بالفعل بقرارات ديمقراطية، وبالتالي علينا أن لا نبلع حكاية الديمقراطية - لإسرائيل أو لغيرها من الدول - دون أن تكون القرارات الديمقراطية مستندة إلى الشرعية الدولية.

أخيراً أيها الإخوة والأصدقاء أود أن أذكر أن إحدى مسؤوليات رئيس الجامعة هو افتتاح المؤتمرات والندوات وإبداء الملاحظات في أمور قد لا يعرف عنها الكثير. وبعد مداخلتني البسيطة ربما تأكدتم أنني بالفعل لا أعرف أي شيء عن موضوع الندوة، ومع ذلك فأنا سعيد بعقد هذا المؤتمر، وأشكر الدكتور مجدي المالكي مدير معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية الذي يرعى هذا النشاط، وأشكر أيضاً زملاءه في المعهد مكرراً ترحيبي بكم وبمشاركتكم - وأهلاً وسهلاً بكم في بيرزيت وجامعتها.





## كلمة الإفتتاح

مجدي المالكي\*

يسرني باسم معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية أن أرحب بكم جميعاً في أعمال مؤتمرنا الدولي التاسع هذا. أرحب وأشكر ضيوف وأصدقاء المعهد الذين قدموا من أمريكا، ومن بعض الدول الأوروبية ملين دعوتنا للمساهمة والمشاركة في أعمال هذا المؤتمر رغم انشغالهم، ورغم الظروف الصعبة التي تمر بها المنطقة. كما أرحب بالسادة ممثلي مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، وسفراء وممثلي الدول المختلفة، وبممثلي المؤسسات الأهلية المحلية والأجنبية. وأرحب أيضاً بكافة العاملين في المؤسسات الأكاديمية والبحثية، وبالزملاء الأساتذة والعاملين في جامعة بيرزيت وطلبة الجامعة. أشكركم جميعاً على حضوركم، كما أتقدم بالشكر الجزيل للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون لدعمها المالي والمعنوي والذي لولاه لما استطعنا إنجاز هذا المؤتمر الأكاديمي. وأهلاً وسهلاً بكم جميعاً.

\* أستاذ علم الاجتماع، مدير معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية.

## الأخوات والأخوة

يأتي هذا المؤتمر كواحد من سلسلة من المؤتمرات التي بدأها معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية في جامعة بير زيت منذ عدة سنوات. ركزت هذه المؤتمرات على مواضيع سياسية وأكاديمية بأبعادها المحلية والإقليمية والدولية، وعكست من زوايا متعددة، هموم المجتمع الفلسطيني بفنائه المختلفة. ويطمح المعهد بذلك للمساهمة في إغناء الجدل الدائر حول العديد من القضايا التي تهم المجتمع الفلسطيني، ولتسليط الضوء على العديد من المواضيع الأكاديمية التي ما زالت تثير اهتمام الباحثين محليا ودوليا.

في هذا السياق تم التفكير بعقد هذا المؤتمر حول التاريخ الفلسطيني بأبعاده الاجتماعية والسياسية والثقافية من منطلقات منهجية ونظرية متعددة. ونطمح من هذا المؤتمر أن نقدم مساهمة متواضعة في إعادة التفكير في التاريخ الاجتماعي الفلسطيني، وفي مصادر ومنهجيات التأريخ بشكل عام، من خلال مقارنة التجارب والخبرات البحثية الأكاديمية المختلفة التي سيعبر عنها المشاركون.

لقد أصبح من المعروف أن الخطاب السياسي القومي قد طغى على التأريخ الفلسطيني، فبرز هذا التاريخ كأنه تاريخ بطولات في مواجهة الاستعمار، وتاريخ نخبة سياسية تقود الصراع القومي، وغاب خلف كل ذلك الإنسان الفلسطيني العادي، والعائلة الفلسطينية البسيطة التي ما زالت تكذب وتشقى لتعيل أبنائها على أرضها منذ أكثر من قرن. لقد جُذبت القرية بتراتها، والمدينة بأحيائها، والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لصالح الخطاب السياسي القومي، فخرجنا بتاريخ مبتور فيه الكثير من الافتراضات التي تحتاج للمراجعة.

فكيف يمكننا إعادة إكتشاف وتسليط الضوء على الأبعاد الأخرى المتعددة التي أهملت، والتي ساهمت وما زالت، في رسم ملامح تاريخنا وحاضرنا؟ كيف يمكننا رصد الوقائع والتواصل بين الظواهر زمنيا ومكانيا في ظل التغيرات السياسية السريعة التي تفرضها الأحداث السياسية على الأرض. فمنذ زمن الانتداب والنكبة، إلى زمن الوصاية والتهجير، مروراً بزمن الاحتلال والثورة، وحتى زمن الانتفاضة وشبه التحرر، ومن ثم العودة إلى زمن الانتفاضة، كلها حقبت تركت بصماتها على كافة مناحي حياة المجتمع الفلسطيني وأعدت تشكيله وفقا لأطر سياسية وتشريعية جديدة. فكيف نبحث في كل ذلك؟ ومن أين نبدأ في ظل التشرذم الاجتماعي والجغرافي المفروض علينا؟.

أعتقد أنه لا بد من المساهمة في تطوير رؤية لدراسة التاريخ دراسة أكثر شمولية وتكاملية تجمع بين الوسائل والمناهج والتوجهات المختلفة، لتمنح المشهد التاريخي روحه النابضة بالحياة وواقعيته المعقدة المتغيرة. مشهد يجمع بين المنهجيات المختلفة كالأبحاث الاختبارية

الاجتماعية والتاريخية، والخطاب والأرشيف والسير الذاتية وغيرها بحيث يفحص ويؤكد كل من هذه الجوانب والمجالات الجانب الآخر في صورة اجتماعية وسياسية تاريخية شاملة.

إن البعد التاريخي الشامل أصبح أمرا أساسيا بالنسبة للتفكير في السياسة والاجتماع والاقتصاد وفي التنمية بشكل عام. والقول بأن تأثيرات الحداثة والعولمة الواردة من الخارج أصبحت أكثر أهمية في تحديد عوامل التغيير في مجتمعنا الفلسطيني هو قول غير كاف لفهم عوامل التغيير أو التطور أو التخلف داخل مجتمعنا. لهذا نحن بأمس الحاجة لمنهج تاريخي شمولي يسمح بتحديد مدى حداثة الظواهر المبحوثة في فترات معينة، ومدى تداخل وارتباط العوامل المشكلة لها، ومدى ديمومتها. هذه فائدة لا تنحصر في المجال الفكري والأكاديمي، بل تصبح حاجة عملية وذات بعد تطبيقي تنموي بحيث يسمح لنا هذا المنهج بإبراز ثقل جمود إرث الماضي، ومدى تأثير العوامل التاريخية على الحاضر، وبأي مدى من القوة ما زالت هذه العوامل تعمل في صمت وتتفاعل مع العوامل الجديدة، بأشكال تفاعلية معقدة ومتنوعة.

وفي كل الأحوال هذه رؤية تفرض نفسها كتحدٍ كبير على المؤرخين والباحثين في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والثقافة، وهو ما يستدعي المزيد من الدراسة والمقارنة والجدل والاستفادة من الخبرات المتعددة التي حاولنا توفيرها في هذا المؤتمر.

وأود الإشارة هنا أن هذا المؤتمر، هذا التجمع الذي يسمح بالتواصل بين المثقفين والأكاديميين من الوطن ومن الخارج، ليس له أهمية أكاديمية فقط، بل يتخذ دلالات خاصة، في ظل الظروف الصعبة التي نعيشها في الأراضي المحتلة وسياسات العزل والحصار التي تفرضها علينا السلطات الإسرائيلية منذ حوالي ثلاثة أعوام، فهو شكل من أشكال المقاومة والتحدى لهذه السياسات القمعية العنصرية.

وختاما أريد أن أؤكد أن المعهد حريص على أن تتوافر لهذا المؤتمر، كما في كل المؤتمرات السابقة، الحرية الكاملة للمشاركين للتعبير عن آرائهم، وأن يشعروا أنهم يستطيعون بكل حرية أن يفكروا بصوت عال دون خشية من سوء فهم أو أحكام مسبقة. وأمل أن يتم في هذا المؤتمر حوارا أكاديميا عميقا ومسؤولا. وسيكون المعهد من جهته حريصا وأميناً على نشر كل الأوراق والمداخلات في الكتاب الذي سينشر حوله في أقرب وقت ممكن.

وختاما أكرر ترحيبي بالجميع، شاكرا لكم تلبية الدعوة ومساهماتكم الفكرية فيها، معذرا لكم جميعا ومسبقا عن برنامج حرص المعهد على أن يستفيد فيه إلى أقصى ما يمكن من وجودكم في هذا المؤتمر، مع كل ما سيسببه لكم ذلك من إرهاق، أعلم مسبقا كم سيكون كبيرا.

وأتمنى للجميع التوفيق



## الخبر والرواية التاريخية في حكايات ألف ليلة وليلة

خليل عثمانة\*

يجد المتقصي لحكايات ألف ليلة وليلة ألواناً شتى من صنوف الأدب التي أفرزها الفكر الإسلامي على مدار القرون الأربعة الأولى التي أعقبت ظهور الدعوة الإسلامية. ولا يحتاج دارسو الإسلام في العصور الوسيطة إلى كبير عناء كي يتبينوا أن حكايات الليالي لم تكن إلا مرآة انعكست عليها آثار الحضارة الفكرية التي بدأت مفاهيمها في التشكل في مرحلة مبكرة من القرن الثامن الميلادي، إلى أن تبلورت بصيغتها النهائية في نهاية القرن العاشر الميلادي أو ربما العقود الأولى من القرن الحادي عشر.

قلما نجد حقلاً من حقول المعرفة أو فناً من فنون الأدب إلا وهو مائل بوضوح في هذه الحكاية أو في تلك، بل ونجد بعضها ماثلاً في أكثر من حكاية واحدة أو اثنتين أو حتى ثلاث حكايات، فلا يصعب على الدارس المتخصص في أي من الموضوعات ذات الصلة بالتراث الفكري الإسلامي أن يجد مادة وفيرة لا غنى عنها في بعض الأحيان، لإكمال دائرة البحث الذي يعكف عليه.

\* أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة بيرزيت.

ومع ذلك يجب أن نعترف أن بعض صنوف الفكر ذات الطابع العلمي المحض كالعلوم والفيزياء والفلك لا نجد لها صدى في حكايات الليالي، لأن جمهور هذه الحكايات كما هو حال القصص والقصص أقرب إلى العامة منهم إلى الخاصة، وسوقها رائجة بين جمهور الناس البسطاء دون العلماء. ويجب أن نشير إلى أن حظ موضوع بعينه كان أكبر من حظ موضوع آخر من جهة حضوره في مادة هذه الحكايات.

ولعلي في غنى، في هذه المقدمة، عن أن أقدم كشفاً تفصيلياً ومستفيضاً بأسماء هذه المواضيع، ولكنني مع ذلك سوف اسمي بعضها مع شئ من التعميم كي ترسم في ذهن القارئ صورة أولية عما تختزنه حكايات الليالي من معلومات تغطي جوانب هامة من التراث الإسلامي فكراً وعلماً وأدباً.

وأحب أن أنه في هذا الصدد، أن ترتيب هذه المواضيع كما سأسوقها لا يعكس بالضرورة حجم مادة هذه المواضيع أو مكانتها في حكايات الليالي، وإنما هو عرض عفوي اتفاقي ليس إلا.

## ١- الأدب الديني

ينقسم كما يرد في حكايات الليالي إلى ثلاثة أقسام أولها المعتقدات الإسلامية حول عالم الآخرة، وتبرز في هذا القسم وبشكل قوي المعتقدات الإسلامية المتأثرة بالديانة اليهودية وحكايات التلمود والمشناة بشكل خاص، والتي يعرفها المسلمون بالإسرائيليات. وتندرج أيضاً في هذا القسم بعض المعتقدات الشرقية المتعلقة بالجن والشياطين وعالم الأرواح. أما القسم الثاني فيختص بالوعظ والمقامات الدينية والرقائق والقيم المثالية التي تنص عليها الديانات السماوية الثلاث، ولو أن الأسلوب الذي طرحت فيه هذه المواد أظهرها وكأنها خاصة بالديانة الإسلامية دون المسيحية أو اليهودية.

أما القسم الثالث في هذا الباب فنوع شبيهه بأدب الأديان المقارن، إذ توضع الديانة الإسلامية إزاء الديانات الأخرى، فالأبطال المفضلون دائماً هم مسلمون، وأما إذا لم يكونوا من المسلمين فلا تذكر هويتهم الدينية.

وبمقارنة الأديان مع بعضها نلاحظ أن المسيحية غير محببة بل وتعرض بنوع من السلبية أحياناً، بينما تذكر اليهودية على قلة لافتة للنظر. ولعل ذلك يعكس إلى حد بعيد الصراع اللامنتهي بين الإسلام والمسيحية والذي غداة الصراع السياسي بين دولة الإسلام وبين

الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحي آنذاك. أما المجوسية فتظهر على أنها شرّ الديانات ومصدر السوء هي وأتباعها. هذا الموقف العدائي الحاسم من المجوسية يعكس إلى حد بعيد جو التنافس الحضاري والفكري ولربما العرقي بين العرب وبين أبناء الحضارة الفارسية، والذي عرف اصطلاحاً تحت عنوان الشعوبية.

وفي هذا الصدد لا يجب أن نتوقع تناول مواضيع دينية محضة ذات صلة بصلب العقيدة أو أصولها أو فروعها، وإنما تسجيل لبعض المشاعر الدينية في نفوس القصاص و نفوس إبطالهم الذين لا يبعدون كثيراً عن مشاعر العامة وجمهور الناس البسطاء.

## ٢- أدب الحياة الاجتماعية

قلما نلاحظ في أدب الليالي اختلافاً في البيئة الاجتماعية، أو في عادات الأبطال وقيمهم، أو في التقاليد الشعبية، أو الأعراف الإنسانية، على الرغم من تعدد المصادر والمواطن الجغرافية لقصص الليالي، فالقصة التي تدور أحداثها على أرض هندية وبين ظهراي مجتمعات هندي لا نلمح فيها أية إشارة للفوارق في العادات والأخلاق والقيم والأعراف التي تميز أبطالها، عن قصة تدور أحداثها في القاهرة أو في بغداد. إذ أنه لمن الصعب أن نتعرف على ملامح بيئة فارسية خالصة أو هندية خالصة، فمسرح هذه الحكايات قد تنقل على مرّ العصور في بيئات مختلفة، وترددت على ألسنة قُصاص كثيرين. ولكن القاصّ يهتمّ الحادّث الإنساني الذي يمكن أن يحدث في أي مكان وأي عصر وفي أية بيئة اجتماعية، ولا تهتم القاص في مثل هذه الحالة العناصر المكونة للهوية الذاتية لبيئة بعينها. بل يهتم مدى تذوق سامعيه لما يسرد، فيحكي لهم أشياء ويذكر لهم مفاهيم، ويركز على قيم يستسيغها هذا الجمهور وحده. وبالتالي فإن الحكاية تصطبغ بالطابع العام الذي يميز جمهور السامعين، ولما كان هذا الجمهور مسلماً في سواده الأعظم، وكانت بيئته عربية إسلامية فإن المناخ الطبيعي لهذه الحكايات سيكون بالضرورة البيئة الاجتماعية الإسلامية.

ووجود أسماء لمدن أو أبطال للحكايات من أصل هندي أو صيني أو بيزنطي لا يغير من مكونات البيئة الإسلامية شيئاً، اللهم إلا الأسماء الأعجمية للمكان وللأبطال على حد سواء. وإذا ما فرضت البيئات الغربية نفسها على القاص فإنها تقسم إلى قسمين من حيث تأثرها ببيئة القاص؛

فبيئة سمع عنها القاص ووصلت إليه معلومات غير المعلومات التي ترد في قصته، كان لأبطالها، سواء كانوا هنوداً أو فرساً أو كانوا أو بوذيين مسيحيين ميزات خاصة بهم. في مثل هذا النوع من القصص نجد البطل إذا كان ملكاً من ملوك الهند يظل ذا شخصية متميزة دون أن تؤثر هويته على المفاهيم أو القيم الاجتماعية للجمهور الذي يصغي إلى

الحكاية، فالبيئة الغربية إذن لا تنعكس في الواقع إلا بتلك الأسماء الغريبة الأعجمية التي يحملها الأبطال فقط.

أما إذا كانت البيئة قد انبثق عنها خيال القاص كبيئة الجنّ وأهل البحر، فإن هذه البيئات تكون إسلامية محضة، تحمل ميزات المجتمع الإسلامي وتحافظ على تقاليده وأعرافه الاجتماعية، كما هو الحال في القاهرة أو بغداد أو البصرة أو دمشق.

فأهل البحر يقيمون حفلات الزواج كأهل مصر، والجنيات في قصة حسن الصائغ البصري يعشن كأهل الأرض، يأكلن الطعام ويمشين في الأسواق، يلعبن الشطرنج ويقمن في رحلات الصيد. الفارق الوحيد في هذه البيئة الغربية يتمثل فقط في المظهر الخارجي لهذه المخلوقات، ولكن عاداتهم ومعاملاتهم وتصرفاتهم ولغاتهم ولهجاتهم هي من صميم حياة المجتمع المصري أو البغدادي، بل وأكثر من ذلك، فعالم الأشباح والأرواح والجن هو عالم إسلامي في دينه وشريعته وعبادته.

### ٣- الأدب التعليمي

وضعت أكثر المواضيع التعليمية في حكايات الليالي في الغالب على السنة الجوارية اللاتي عشن في حضرة الخلفاء والملوك، وكان لاختيار الجوارية دون غيرهن من قبل القصاص ما يبرره، نظراً للدور المتعدد الوظائف الذي تلعبه الجوارية في قصور الخلفاء والأمراء. فالاهتمام بالجوارية واكب ظهور الدولة الإسلامية منذ انطلاق الفتوحات، وأخذ ينتعش ويزدهر تدريجياً إلى أن وصل أوجه في عصور الازدهار الحضاري، وانتشار الرخاء الاجتماعي، وازدياد عدد المهتمين بالترفيه والترف.

انصب الاهتمام في البداية على عنصر الجمال الخُلقي عند الجوارية، ثم توسع هذا الاهتمام ليشمل صنعة الغناء والعزف على الآلات، ثم توسع ذلك ليشمل الإلمام بالشعر، وأخذت دائرة الاهتمام بالعناصر الأخرى تتسع حتى شملت مواضيع رصينة مختلفة كاللغة والفقه والكلام والفرق والعقائد، فصارت الجوارية عنصراً أساسياً يشارك في المناظرات التي تعقد في مجالس العلماء تحت رعاية الخلفاء. ولما كان بعض القصاص حاذقاً في كثير من العلوم وفنون الأدب والفقه والكلام والأخبار والتاريخ (خاصة وأن الدعاة السياسيين والمذهبيين من الشيعة أو الإسماعيلية أو القرامطة أو الحشاشين كانوا يتخفون بزِي القصص ليستطيعوا نشر دعايتهم بعيداً عن أعين الرقباء)، فقد أراد أن يعرض أحد هؤلاء معلوماته تلك بشكل سلس ومشوق لا تنفر منه أسماع جمهوره، ولذا اختار أن يضع



هذه المعلومات على لسان إحدى الجوارى التي تناظر جهاذة العلماء في مجلس الخليفة، أو على لسان جارية أخرى تعرض للبيع في سوق النخاسة، فيأخذ التجار يلقون عليها أسئلة في مختلف أوجه العلوم والمعرفة، حتى يتأكدوا من أنهم لن يدفعوا ثمناً باهظاً سُدَى. وكان هذا المشهد في بعض القصص هو الوسيلة الوحيدة المُتاحة لكي تُنقذ الجارية بطلة القصة من ورطة تترتب على تجاوزها والخلاص منها أشياء هامة أخرى ضرورية لحبكة القصة (كما كان الحال في قصة تودد الجارية).

وتُصادفنا في هذا المجال صورة نزهة الزمان الجارية الداهية التي تلعب دوراً رئيسياً في قصة عُمَرُ النُّعْمَان. فلما عرضها التاجر على شريكه حاكم دمشق جمع لها القضاة ليستمعوا لها، فبدأت بعرض معلوماتها في باب الأدب وسياسة الملوك بأسلوب يأخذ بالألباب. ويلاحظ في هذا السياق أسلوب آخر لإلقاء المواضيع التعليمية وهو أسلوب السؤال والجواب كما هو الحال في قصة تودد. أما المواضيع التي تبدو أكثر مُسايرةً للموضوع التعليمي فهي تدور داخل دائرة واسعة تشمل الفقه والكلام والفلسفة ومذاهب أهل السنة وأهل الشيعة، ومذاهب الأئمة الأربعة والطب والتنجيم والقراءات والهندسة والمنطق.

هذه ثلاثة مجالات فقط أردت أن أورد عرضاً سريعاً لها، وإلى جانبها مواضيع أخرى كموضوع المعجزات والخوارق، وعالم الأرواح، وأدب العجائب والغرائب، وموضوع الأخلاق وعالم الحيوان والمرأة والجنس، يستطيع كل راغب أن يتعرف عليها من خلال جولانه بين رياض حكايات الليالي. وهناك موضوع آخر لم أذكره بين ما ذكرت من مواضيع هو موضوع التاريخ والأخبار، أفردته عما سبقه لأنه سيكون موضوع ورقتي هذه.

## الأخبار والمادة التاريخية

في كتاب ألف ليلة وليلة مجموعة من الأخبار والقصص التاريخي التي كانت ترتسم في أذهان العامة على أنها رواية تاريخية أو على الأقل انعكاس لهذا التاريخ. ويمكن أن نصنف المادة التاريخية في حكايات الليالي إلى صنفين من حيث الموضوع والفحوى، ويستتبع هذا التصنيف تصنيف آخر يرتبط بالطريقة التي تعرض فيها هذه المادة. وفي ما يتعلق بالتصنيف الموضوعي فهو أولاً: أخبار عن أحداث تاريخية تتراوح في عرضها بين الدقة والتحريف. والصنف الثاني ليس تاريخياً بالمرّة، وإنما هو مجرد تلفيق خيالي لأحداث ووقائع لم تحدث تفتّق عنها خيال القاصّ وأوهامه، ولكنها رويت على أنها أحداث تاريخية، استعان القاص في سردها بوسائل فنية لصبغها بصبغة الخبر التاريخي.

أما من حيث العرض فإن الخبر التاريخي الصحيح أو المُحرّف، روي على شكل أخبار قصيرة مفردة، بعيدة كل البعد عن السياق التاريخي والتسلسل الزمني. ونوع آخر من المادة التاريخية روي على شكل قصة أو جزء من قصة، ولم يروَ كما يروي الخبر التاريخي الذي يعتمد على عناصر فنية متعارف عليها، سواء في مجال الإسناد أو مصطلح الرواية.

ويستطيع المرء أن يلتمس العذر لقصّاص الليالي فيما فعلوا بالمادة التاريخية التي كانت في متناول أيديهم، أو تلك التي وعوها بذاكرتهم، فهم لم يفعلوا ذلك عن رغبة في تزوير التاريخ الإسلامي، أو كتابته من جديد، فظروف القصص وعناصر الحكاية الشعبية كانت وما زالت تحتاج إلى الحادثة التاريخية التي تشكل قطب الرحى التي تدور من حولها أحداث القصة، ولكن الحادثة التاريخية كمادة خام، لا يمكن أن تستسيغها أسماع العامة فلا بد إذن من لُقها وزركشتها وإعادة تشكيلها لتصبح بضاعة يسهل على القاصّ تسويقها إلى سامعيه، ومهمّة كهذه تقتضي تحريف الخبر أو حذف بعض تفاصيله أو أجزاءه أو حتى إضافة عنصر من عناصر الإثارة إليه، تماماً كما يحدث في إعداد سيناريوهات الروايات كي تحول إلى أفلام سينمائية.

## الخبر التاريخي والمنظور القصصي

القاصّ المُحرّف، من أمثال قصّاص الليالي، كان خبيراً بأذواق جمهوره، وكان مطلعاً على محدودية الوعي الشعبي في فهم التاريخ، وكان مدركاً لطاقة الاستيعاب عندهم، ولذلك أباح لنفسه أن يحرف ويؤرّ، وأباح لنفسه أن يتغاضى عن الوسائل الفنية الضرورية لعرض المادة التاريخية، أنه باختصار كالخياط الذي يفصل الثوب وفق المقاسات عند زُبونه.

ومن هنا فإن معظم المادة التاريخية في ألف ليلة وليلة تعكس إلى حد كبير الرؤية الشعبية للتاريخ الإسلامي، على الأقل إبان الحقب الزمنية التي انتشر فيها هذا اللون من القصص الشعبي. وعودة إلى طريقتي عرض المادة التاريخية، لدى قصاص الليالي، نجد أن طريقة العرض بأسلوب القصة هو الأكثر رواجاً لأنه الأيسر على القاص، والأكثر قبولاً عند المتلقي إذا ما قورن مع الطريقة الثانية وهو أسلوب عرض المادة على شكل خبر. فعن طريق أسلوب القصة يظل لدى القاص حيز واسع للتغيير والتبديل أو للتقديم والتأخير أو إضفاء بعض عناصر الإثارة على المادة التاريخية، كما أن أسلوب القصة يتيح للقاص استطرادات تفصيلية وإدخال بعض الشروح والتعليقات التي يحتاج إليها النص الأصلي، وكل هذه الأمور لا تتسع لها طريقة العرض بأسلوب الخبر.

وهناك جانب آخر يجب ألا نغفله ونحن نُقارن بين الطريقتين، تلك هي المَحْدودية التي تميّز الوظيفة أو الغرض الذي يساق من اجله الخبر أي الهدف المباشر ذي البعد الواحد. ففي قصة مقتل الخليفة المتوكّل، فإن العبرة المستفادة هي انسياق أحد أبنائه وراء الإغراء بالاستيلاء على عرش أبيه ثم الندم الذي لحقه بعد ذلك. من أجل ذلك، لم يستطع القاص أن يبتعد عن تحقيق هذه الغاية فكان لزاماً عليه أن يتطرق إلى هذه الحادثة مستخدماً أسلوب الخبر.

ولو أن القاص اختار طريقة القصة لكان بإمكانه مثلاً أن يتطرق إلى دسائس القصر ورجاله والنزاع الدامي بين أمراء الأسرة العباسية على تولي السلطة، هذا الصراع الذي كان يغذيه التنافس المحموم بين قواد العساكر الأتراك، ولكان باستطاعته كذلك أن يبين تكالب الوزراء والكتاب وكبار موظفي الدولة على اقتناء الضياع السلطانية، والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من مدخولات الخزينة، ولكان استطاع أخيراً أن يجعل منها نموذجاً للدسائس التي تحاك داخل الأسرة المالكة التي تعاقبت على الحكم في الدولة الإسلامية، للوصول إلى كراسي الحكم.

هذه الأحادية نجدها في خبر آخر يتعلق بفتح مدينة طَلَيْطَلَة في أسبانيا. إذ يتطرق الخبر إلى رواية نبوية غيبية تتعلق باستمرار ملوك القوط الغربيين في حكم شبه الجزيرة الأيبيرية. حيث حلّت اللعنة بملوك الأسرة ومملكتهم عندما تمكن المغتصب لذريق (أو رذريق) من الاستيلاء على الحكم وتنحية الوريث الشرعي عن ملكه، ثم إصرار المغتصب على فتح الغرفة ذات الأقفال (التي يساوي عددها عدد ملوك الأسرة السابقين) ليرى ما بداخلها رغم تحذيرات الرهبان والكهان له من فتح هذه الأقفال لعلمهم بعظم الكارثة التي ستعصف بالمملكة جراء ذلك. ثم ينتقل إلى الحديث عن أسطورة كنوز سليمان التي نهبت أيام الرومان وتنقلت من روما حتى استقرت في هذه الغرفة، حيث حرص القائد المسلم طارق بن زياد - وفي بعض الروايات التاريخية، موسى بن نصير - على نقلها وإعادةها إلى المشرق موطنها الأول. لقد قيّدت صيغة الخبر حرية القاصّ فمنعته من التطرق إلى قضايا أكثر أهمية من هاتين النقطتين الغيبيتين المتأثرتين بأدب الإسرائيليات، وأدت به إلى إهمال مسألة الدور الذي لعبه طارق بن زياد وجنوده من البربر، وإن كان فتح الأندلس قد جرى بمبادرة بربرية لا علم للسلطة المركزية في دمشق بشأنها. كما أهمل الدور الذي ما زال يكتنفه الغموض، الذي لعبه والي إفريقية موسى بن نصير في قصة فتح الأندلس.

وعلى الرغم من أن هاتين القضيتين لهما صلة موضوعية وفنية بالتاريخ ومادة الأخبار إلا أنهما يُصنّفان من الناحية التقنية والاصطلاحية خارج إطار الخبر التاريخي، وفي أحسن الأحوال على هامش الخبر التاريخي.

فهما جزء لا يتجزأ مما يعرف بأدب النوادر التي ازدحمت كتب التراث الإسلامي به كمأً وكيفاً، حتى أنه غطى حقولاً كثيرة من حقول المعرفة، وألفت فيه الكتب المستقلة القائمة بذاتها، فهناك نوادر في اللغة، وفي الأدب، وفي الفقه، والقضاء، وفي المواضيع الاجتماعية، والأخلاق، والملوك، والأذكياء والأغبياء والكرماء والبخلاء والشجعان والجبناء وغير ذلك.

## النوادر كبديل للخبر التاريخي

إن إيراد هذه النوادر في حكايات الليالي كان لا بد منه، على ضوء تعددية الأغراض والعبر التي توحي الفُصااص نقلها إلى سامعيهم.

إن الدور الذي تؤديه النوادر كمادة مساعدة لفهم التاريخ هي الوسيلة الوحيدة المتاحة في التراث الإسلامي لما يعرف اليوم عند المؤرخين المعاصرين باسم تفسير التاريخ، فالطريقة الكلاسيكية لدى مؤرخي الإسلام والمتمثلة بالتاريخ الحولي أو تاريخ الملوك أو التاريخ وفقاً لجداول الأنساب، تخلو من هذه المقدمات للأحداث، كما تخلو من ظاهرة التحليل للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، كعناصر محرّكة للأحداث. فجاءت هذه النوادر لتسد ثغرة هامة في هذا المجال ولو أنها لا تغطي كافة هذه المجالات.

هذه النوادر التي نراها مبعثرة هنا وهناك في حكايات ألف ليلة وليلة، قيّدت حرية الحركة لدى القصاص، ومنعتهم من أن يخيّموا بخيالهم في افتعال الأحداث والشخصيات. كما قيّدت حريتهم في تشكيل الصياغة اللغوية التي حرصوا دائماً عليها في قصصهم، حتى يخلقوا توافقاً بين الأسلوب اللغوي المُبسّط وبين القدرة الاستيعابية لدى جمهورهم من العامة، حتى أصبحت لغتهم أقرب إلى المستوى المحكيّ منه إلى العربية الفصحى. أما في سرد النوادر فظلت لغتهم وظل أسلوبهم أقرب إلى لغة الأصل، ومن ثم أقرب إلى الفصحى، أو أنهم في بعض الأحيان حافظوا على الالتزام بحرفيّة النّص الفصيح كما حفظوه أو كما نقلوه عن المصادر. كما أنهم تقيّدوا بقيّد آخر لم يكن مألوفاً عندهم، ولم يغب عن كثير من حكايات الليالي، ألا وهو الالتزام بأسماء الأشخاص ممن تدور النادرة حولهم، فخالد القسري في قصة الغلام السارق، لم يُغيّر بأيّ وال آخر من ولاية العراق ممن سبقه أو لحقه، بالرغم من كثرتهم وبالرغم من التشابه في شخصياتهم وفي منهجهم في الحكم، وسلوكهم في سيرتهم الذاتية.

كما أن الحجاج بن يوسف يظل نفسه الحجاج في قصة زواجه من هند (التي هي في الحقيقة ليست بنت النعمان بل هند أخرى). ومخبوية جارية المتوكّل تظل نفسها مخبوية في قصة غرامها الجامح بالمتوكّل، وتعلق سيدها المحموم بها. على الرغم من كثرة

الجواري وكثرة الخلفاء العباسيين أو الأمويين الذين مروا بتجارب مشابهة مع جوار لهم نفس المزايا التي كانت لمحبوبة جارية المتوكل.

وفي هذا الصدد نتعرف على نقطة اختلاف أخرى بين طريقة الخبر وطريقة القصة. فالأعلام وأسماء الأشخاص في القصص تفقد قيمتها لأن الذي يستحوذ على الاهتمام هو موضوع القصة والحرص على تسلسل أحداثها، وليس الأشخاص الثانويين الذين يُحتاج إلى ذكرهم لرصد تحركات بطلة القصة أو بطلها أو أبطالها جميعاً، فالخليفة الرشيد في إحدى النوادر حيث استدعى إلى قصره الأصمعي عندما أرق في إحدى الليالي، يجب أن يظل هو الرشيد، لا أي خليفة آخر، لأنه عنصر هام يدور من حوله الحدث في هذا الخبر. بينما نجد أن الرشيد نفسه في إحدى القصص هو مجرد خليفة، أي خليفة، لأنه ذكر كهيئة غليبا يمكن أن يلبأ إليه بطل القصة المظلوم بحثاً عن العدل والإنصاف، ولذلك يكون من السهل استبدال اسمه بأي حاكم آخر من أجل هذا الهدف المحدد وهو إقامة العدل، والحكام أشباهه في هذا المجال كثيرون، فلو ذكر المأمون أو ذكر معاوية أو ذكر عمر ابن عبد العزيز بدلاً من الرشيد لما لاحظ السامع أو القارئ ذلك.

بقي موضوع آخر يُحتاج إليه لاستكمال الصورة التي حاولت رسمها عن المادة التاريخية في حكايات الليالي، وهو مقارنة النصوص الواردة في ألف ليلة وليلة مع مظانها في المصادر الأدبية التاريخية، ولا أزمع أنني قادر في هذه الكلمة على أن استقصي كافة الأخبار والمواد التاريخية الواردة في الليالي، وغايتي فقط الوقوف على بعض هذه الأخبار ومقارنتها من حيث المضمون والمحتوى مع المصادر المقابلة بعد أن وقفت بشئ من التعميم على نقاط الاختلاف بينها وبين الأخبار التاريخية المحضة من الناحيتين الفنية والإصطلاحية، وسوف أتطرق إلى بعض الحكايات الواردة في الليالي والتي يوجد لها مادة مقابلة في مصادر أخرى فمنها على سبيل المثال لا الحصر:

### (١) حكاية خالد بن عبد الله القسري مع الشارب السارق

إن حكاية الليالي (ألف ليلة وليلة، ج ٢ ص ٢٢٢، الليلة: ٣٤١ المطبعة السعيدية، القاهرة، ١٣٤٨ للهجرة) تدور حول شاب قبض عليه بتهمة السرقة، فأودع السجن في البصرة حتى ينظر القضاء في أمره، إلا أن خالد بن عبد الله القسري، (والي العراق أيام هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي) لم يقتنع باعتراف الشاب أنه ارتكب السرقة فعلاً، ورأى أن وراء هذا الاعتراف يكمن سرٌّ لا يريد الشاب الإفصاح عنه. فأمر الموكلين بالسجن أن يأتوه بالخبر اليقين، وفي إحدى الليالي سمع أحدهم هذا الشاب يلهج بشعر أعترف فيه بقصة غرامه بابتنة

صاحب البيت الذي اتهم بسرقة، وأنه اعترف بالسرقة كي لا يفضح حُبّه ومحبوبته مضحياً في سبيل ذلك بدفع ثمن باهظ وهو عقوبة القطع (أي قطع يد السارق). حاول القسري بعد ذلك أن يثني الشاب عن الاعتراف بالسرقة إلا أنه أصر على ذلك، ولم يبيح لخالد بسرّه إلى أن أتى اليوم الموعد ونودي في الناس لحضور عقوبة القطع، ولما همّ الجلاد بذلك اقتحمت الجموع فتاة عليها اطمار بالية وألقت بنفسها على الشاب، ولوحت بورقة كانت تحملها وناشدت الأمير أن يقرأها، فإذا فيها اعتراف من الشاب بحبه لها وأنه إنما تسلل إلى بيتها ليراها وأنه افتعل حادث السرقة لما صحا أهلها، وذلك حرصاً منه على شرفها وسمعتها. بعد أن سمع الأمير ذلك تدخل لدى أسرتها وزوج الشاب بفتاة أحلامه.

يرد هذا الخبر بشيء كبير من الإيجاز في كتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية، مراجعة: صابر يوسف، طبعة القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٨٦) حيث التقى خالد بهذا السجين، واسمه يزيد بن فلان البجلي، دون أن تذكر التهمة بشكل محدد، فسأله خالد إن كان سيعود إلى ارتكاب تلك المخالفة إذا ما أفرج عنه فأجاب الشاب بنعم، وكره أن يفضح عن التهمة لئلا يفضح عشيقته. تم تدخل أخ للسجين كشف الأمر لخالد. عندها أمر خالد بإطلاق سراجه وأمر ولي أمر الفتاة بتزويجها له.

نلاحظ عند المقارنة بين النصين وقبل كل شيء التطويل المفتعل في نص ألف ليلة وليلة مقارنة بالاختصار الذي يميز نص روضة المحبين. جاء هذا التطويل بالطبع ليضفي العنصر الدرامي على هذه القصة، ولكي يلبي شغف العامة من جمهور السامعين بالدرامية التي تنتهي بها القصة، حيث يجب أن تصل الأمور إلى حافة الهاوية ثم تأتي ودون توقع وفي قمة اليأس من نجاة البطل لحظة الخلاص، حين تنكشف الحقيقة التي تعكس نبل هذا العاشق واستعداده للتضحية بنفسه من أجل طهارة عشيقته وقديسية هذا العشق. وهنا يجب أن لا ننسى أن ابن قيم الجوزية من الكتاب المتأخرين (توفي سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م) أي بعد أن كانت نسخ كثيرة من ألف ليلة وليلة قد دونت، ومن المعروف أن ابن قيم الجوزية وأمثاله من المؤلفين المتأخرين قد نقلوا عن مؤلفات مبكرة يتراوح تأليفها بين القرن الثاني والقرن الرابع الهجري. ومن البديهي أن هذا الخبر قد نُقل من إحدى المؤلفات المبكرة المخطوطة أو المطبوعة.

**(٢) وهناك خبر زواج الخليفة المأمون ببوران ابنة وزيره الحسن بن سهل (ألف ليلة وليلة، ج٢ ص ٢٠٢-٢٠٣)**

حيث يجعل القاص قضية الزواج على أنها محض صدفة حدثت أثناء مغامرة مشتركة للمأمون مع مُعْتَبِيهِ وَنَدِيمِهِ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْمُوصَلِيِّ، مع جوار حسان كانا يتسللان

إليهن خلصة للسماع والشراب، وضمن هذه المغامرة يكتشف المأمون أن صاحب الدار هو الحسن بن سهل فيخطب الخليفة ابنته خديجة (وهي بوران) ويتزوجها.

بهذه البساطة والعفوية والهامشية يعرض القاص لقصة زواج المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل. هذا الزواج الذي طبقت شهرته الآفاق وازدحمت كتب التاريخ بأخباره وامتلاّت صفحاتها بتفاصيله. (انظر عن هذا الزواج: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة ليدن، ج ٣، ١٠٨١-١٠٨٢؛ ابن الساعي نساء الخلفاء ص ٦٧-٧٨، تحقيق مصطفى جواد، القاهرة - دون تاريخ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٨، ج ١ ص ٢٨٧-٢٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مَصَوْرَة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٢ ص ٩٠؛ البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١، ج ٧ ص ٣٢٠-٣٢١) فيجعل منه زواجاً سرياً لا يدري به إلا إسحاق الموصلي ووالد العروس الحسن بن سهل. والملفت للنظر حقاً أن القاص يجعل من الحسن بن سهل نُكْرَةً وهو الوزير والقائد البارع الذي أوكل إليه المأمون حسم الجانب العسكري في صراعه على الخلافة مع أخيه الأمين. كما أن القاص لا يشير بشيء إلى الأبهة والفخامة التي رافقت مراسم الزواج وطقوسه والتي حرصت المصادر التاريخية على إبرازها. إن قصة هذا الزواج تندرج في ألف ليلة وليلة مع التوجه العام للحكايات التي تجعل من الجوّاري خاصة والنساء عامة محوراً يدور من حوله الأبطال، وتبنى عليه القصص والحكايات. فنرى كيف أن زواج المأمون بخديجة (أي ببوران) ابنة صاحب المنزل الذي يتسلل إليه المأمون وإسحاق الموصلي متخفيين، جاء على هامش اللقاءات الساهرة مع هؤلاء الجوّاري الفاتنات اللاتي أخذن على المأمون وصاحبه لُبِّيَّهما، وأنه أي الزواج كان حادثاً عرضياً لا يرتبط بمحور القصة الجوهري.

### ٣) أما خبر المتوكل مع جاريتها محبوبة

فتقول رواية الليالي أنها كانت بين مئات الجوّاري التي أهداهن عبيد الله بن طاهر إلى الخليفة المتوكل، وكانت جارية بارعة الجمال تجيد الغناء والضرب على الآلات وتحسن الخط. فتعلق المتوكل بها، ولما رأت محبوبة تعلقه بها تكبرت عليه فغاضبها وهجرها أياماً فأصبح ذات يوم، وكان قد اشتاق إليها، وحدث جلساءه أنه رأى في المنام أنه يصلحها، واتفق أن مرت إحدى الجوّاري بحجرة محبوبة فسمعت غناءً وضرباً على العود، فجاءت وأسرت إلى المتوكل بما سمعت فقام المتوكل ودخل الحجرة على محبوبة، فبادرت إلى الانكباب عليه تقبله وتنكفي على أقدامه وأخبرته أنها رأت في

منامها أن مولاها يصلحها، فأعجب المتوكل من هذا الاتفاق في المنامات. فصارت محبوبة بعد ذلك من أوفى جواري المتوكل إليه، ولما قتل سلطنة جميع جواريه إلا محبوبة التي ظلت حزينة على فراق مولاها.

وقد ورد خبر المتوكل ومحبوبة في العديد من مصادر الأدب والتاريخ منها على سبيل المثال: (الأغاني، طبعة بولاق، ١٢٨٥ للهجرة، ج١٩ ص ١٣٢-١٣٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحمد رشاد عبد المطلب، القاهرة، ١٩٥٣، ج٤ ص ٤٠٢؛ وفيات الأعيان، ج١ ص ٣٥٥-٣٥٦، ابن الساعي، ص ٩٢-٩٨؛ المسعودي، مروج الذهب، تحقيق وترجمة باربي دي مي نار، باريس، ١٨٦٥ ج٧ ص ٢٨١-٢٨٦؛ الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، (مصورة عن طبعة القاهرة) ١٣٧٩ هـ، ج٢ ص ١٥٤؛ ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، بيروت، ١٩٧٣، ص ٦٢-٦٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٥٣-٣٥٤).

والملاحظ في هذا الخبر أن هناك من الاتفاق شبه الكامل بين ما ورد في الليالي وما ورد في المصادر المقابلة، والملفت للنظر أن التطابق قد شمل أبيات الشعر الأربعة المنسوبة إلى محبوبة والتي تغنت بها عند المتوكل بمناسبة هذه المصالحة، وهو تطابق نادراً ما يحدث عندما تتضمن القصص المنقولة أبياتاً من الشعر، التي كثيراً ما تتعرض لكثير من الاختلاف.

#### ٤) أما خبر الحجاج بن يوسف مع هند بنت النعمان

فيورده قصاص الليالي حكاية مكتملة العناصر تتخللها بعض المغالطات التاريخية، إذ تزعم الرواية أن الحجاج بن يوسف قد تزوج بهند بنت النعمان بن المنذر. وهند هذه هي التي تعرف بهند الصغرى وتعرف أيضاً بلقبها «الحرقة».

وكانت هند تقيم في دير من أديرة الحيرة كانت قد بنته لنفسها يعرف باسم «دير هند»، فلما فتح خالد بن الوليد الحيرة سنة ١٢ للهجرة/٦٣٣م دخل عليها ديراها وعرض عليها أن تتزوج رجلاً شريفاً من العرب ولكنها رفضت هذا العرض (ياقوت الحموي، معجم البلدان، دير هند). وكانت هند قد تزوجت عدي بن زيد، الشاعر العبّادي المعروف، بعد قصة غرام جامحة وبعد أن احتالت على أبيها النعمان لكي يوافق على زواجها من عدي بن زيد، وظلت هند مع زوجها عدي إلى أن قتله أبوها النعمان، فترهبت بعد مقتل زوجها،



واحتبست في دير هند حتى توفيت بعد الفتح الإسلامي في خلافة معاوية بن أبي سفيان (أنظر الأغاني، ج ٢ ص ٣٢-٣٣). وكان المغيرة بن شعبه الذي تولى الكوفة لمعاوية قد زار هنداً في دبرها وأكرمته وسألته سبب زيارته لها فقال بأنه جاء خاطباً لها، ولكنها ردتته أيضاً لأنها رأت فيه أنه ليس من أكفائها (الأغاني، ج ٢ ص ٣٣). وكان الحجاج الذي ولد في سنة ٤١ للهجرة/٦٦١م ما زال ابن تسع سنوات لما توفي المغيرة بن شعبه. ومعروف أن هنداً قد ماتت قبل موت المغيرة، فلا يعقل أن يكون الحجاج قد تزوجها. ولعل رواية الليالي قد خلطت بين هند بنت النعمان وبين هند أخرى تزوجها الحجاج بن يوسف وهي هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري (الأغاني ج ١٨ ص ١٢٨-١٣١)، أو هنداً ثانية هي هند بنت المهلب كان قد تزوجها الحجاج وطلقها كما طلق هند بنت أسماء (وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٥٤-٤٤؛ وانظر أيضاً: ابن عبد ربه، طبائع النساء، تحقيق محمد إبراهيم سليم، القاهرة ١٩٨٥ ص ٥٠).

ويلاحظ في كل الروايات التي تتحدث عن زواج الحجاج بهاتين الهنديتين أنه لم يكن هناك أي نوع من التدخل من قبل عبد الملك بن مروان في طلاق الحجاج منها. لكن الحقيقة أن دوراً ما كان لعبد الملك بن مروان في طلاق الحجاج من امرأة أخرى غير هاتين وهي ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي كانت تربطه بمعاوية وابنه يزيد من بعده روابط الألفة والصداقة. فلما كان الحجاج أميراً على المدينة بعد أن قضى على ثورة عبد الله بن الزبير في مكة، وقبل أن يعين والياً على العراق، خطب ابنة عبد الله هذه- التي تغفل المصادر التصريح باسمها- فعلم عبد الملك بن مروان بأمر هذه الخطبة، فأرسل إلى الحجاج أمراً بالألّا يُتِمَّ الزواج بها وألا يمسه وأن يفسخ عقد زواجه منها، فلم يكن أمام الحجاج إلا أن يمتثل لأمر مولاه الخليفة (أنظر ذلك في: المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دون تاريخ، ج ١ ص ٣٤٩؛ الأغاني، ج ١٣ ص ١٠٧؛ طبائع النساء، ص ١٨٦؛ أخبار النساء، ص ٧٣).

في هذه الروايات لا نرى أية إشارة إلى مسيرة الإذلال التي سادها الحجاج وهو يرافق هنداً المزعومة إلى بلاط عبد الملك في دمشق، لأن عبد الملك لم يطلب منه ذلك. وعدا عن ذلك فإن عبد الملك كما هو معروف تاريخياً لم يتزوج بهند ابنة النعمان ولا بابنة المهلب ولا بابنة أسماء بن خارجة. وتنسجم الرواية التي ترد في حكاية الليالي مع الروح العدائية التي توارثتها الأجيال الإسلامية نحو الحجاج، بسبب ما ألصق به من تهمة كثيرة من قبل خصومه السياسيين وخاصة من أوساط الشيعة، فارتسمت له في المصادر هذه الصورة المفزعة وكأنه إنسان يميل إلى البطش ويعشق سفك الدماء ولا يرعوي عن فعل السوء.

إن هذه الأخبار التي يرويهها فُصَّاص ألف ليلة وليلة ضمن حكايات الليالي، لم تؤخذ من مصادرها لتُنقل على صورتها الأصلية إلى حلقات القصص ومجالسهم، لأن القاص أخذها كمادة خام، اختار لها موضعاً ملائماً داخل الحكاية، ثم شكّلها وأعاد صياغتها ليستخرج من بعضها قصصاً، نجح في بعضها وأخفق في البعض الآخر، ولذا لا يجب على المرء أن يتوقع موقفاً غير هذا، فالقاص ليس مؤرخاً ولا إخبارياً ناقداً. وكل ما يهيمه من الخبر هو اختيار مسألة بعينها يجعل منها عقدة لقصته، وقد تكون هذه المسألة أتفه ما في الخبر من مسائل، وقد تكون مركزية في الخبر الأصلي. ولو نقل القصص هذه الأخبار وتحروا الصدق والأمانة في نقلها لما نجحوا في حشد هذا الكم الهائل من الحكايات، ولما عدَّ عملهم إبداعاً يتوّج مسيرة حضارية على مدى أربعة قرون أو يزيد، ولو فعلوا ذلك ونقلوا لنا الأخبار كما هي لصاروا مجرد نقلة شاحبين لا يلتفت إليهم احد، ولأرُكِنَت حكاياتهم في زوايا مهملة من المكتبات ليتراكم عليها غبار النسيان، كما هو حال كثير من الأعمال الشاحبة التي اختار أصحابها النقل مؤثرين السلامة.

## أسوار القدس الحقيقية والمتخيلة

سليم تماري\*

ترتبط حادثة القدس في المخيلة العامة في صيرورة انتقال سكانها خلال القرن الماضي من داخل أسوار البلدة القديمة (المدينة المقدسة) إلى أحيائها الخضر في غرب المدينة وشمالها. وليس غريباً أن تتخذ هذه الحادثة، والحريات الاجتماعية المرافقة لها، وجهين: هروب من قوقعة الغيتو الاجتماعية، وهروب من هيمنة الطقوس الدينية المرافقة لها. المقال التالي يحاول استعراض سمات النمو الحداثي للقدس العثمانية والانتدابية، واحتمالات الانعتاق الفكري والاجتماعي الذي رافق هذا النمو، كما يتعرض للانعتاف الذي أصاب هذا الانعتاق نتيجة عملية الاستقطاب الإثني والديني الناتج عن المشروع الصهيوني ومخطط الحادثة الانتدابية. ومن خلال هذا الانعتاف أصبحت أسوار المدينة التي أعاد بناءها السلطان سليمان القانوني بهدف الحماية أصبحت جدارات عازلة تقسم حيز المدينة بحسب القومية والدين.

بعكس مكانتها القدسية، بقيت القدس في تاريخها الحديث مدينة طرفية هامشية في معظم امتداد الحقبة العثمانية. ولم تنهض فيها شريحة من الأشراف والعلماء المحليين إلا بعد عام

\* محرر « حوليات القدس ».

١٨٣٩ عندما تحولت إلى متصرفية تابعة مباشرة للحكم السلطاني في الآستانة. وصار في الإمكان مقارنتها بمكانة دمشق وبيروت مركزي الولايات الشامية. وعلى رغم هذا التحول الإداري استمرت القدس في الحفاظ على سماتها كمدينة حجاج وخدمات دينية تابعة للحجيج.

ومع استتباب الأمن العثماني خارج أسوار المدينة القديمة، التي كانت تُغلق أبوابها التاريخية الضخمة عند غروب الشمس حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، بدأت فئات من تجار المدينة ووجهائها بالانتقال بمساكنهم إلى قصور مستقلة في باب الساهرة والشيخ جراح وسعد وسعيد والمصرارة. وفي نهاية القرن نشطت الوقفيات الأرثوذكسية المسيحية والجمعيات الخيرية اليهودية في إنشاء مساكن للطبقات الوسطى في غرب المدينة: أولاً في البقعة، والنمامرة، ويمين موشيه، ومئة شعاريم، والمسكوية (المجمع الروسي الأرثوذكسي الذي تحول لاحقاً إلى المقر العسكري لسلطات الانتداب). كما تعاضمت هذه الحركة السكنية في الفترة الانتدابية وتم استقطاب أعداد كبيرة من موظفي الدولة والمهنيين في أحياء الطالبية والقطمون ورحابيا.

ولا شك في أن حادثة القدس هي حادثة إشكالية. ذلك أن نهاية عزلة المدينة - الغيتو أدت إلى تبلور نظام طائفي أكثر حدة في ملامحه من النسق الذي حل محله. إذ أدخل الاستعمار البريطاني حدوداً فاصلة للأحياء الدينية في البلدة القديمة على أنقاض المحلات (جمع محلّة) السابقة. وفيما كانت المدينة العثمانية تتميز بمزيج مهجن من المجموعات المذهبية والإثنية المتعايشة بوتام نسبي، والمتداخلة اجتماعياً، أصبحت القدس الانتدابية مدينة حارات مذهبية منفصلة، فاقتربت حياة المسيحيين المقدسيين بحارة النصارى، والمسلمين بما أصبح يعرف بحارة المسلمين (وهو حيز لم يكن له وجود سابق)، واليهود بحارة اليهود التي تشكلت من امتداد حارة «شرف» المختلطة. وحدهم الأرمن شكلوا استمراراً تاريخياً لمنطقتهم التي احتلوها منذ قرون عدة، وباختصار أصبحت مع هذا التحول الهوية الدينية متطابقة مع الحيز السكني.

وفي هذا السياق برزت أهمية الانتقال إلى الأحياء الجديدة («البورجوازية») خارج البلدة المسورة كحركة تمرّد ضد وصم مكان السكن للعائلة بدمغة انتماء طائفي لتلك العائلة. ومما زاد من حدة هذا الاستقطاب نجاح الحركة الصهيونية في استمالة أعداد كبيرة من التجمعات الدينية العبادية (pietistic) تحت جناح القومية الجديدة المتشكلة، مما عزز من ظاهرة تطابق الحس الديني والحس القومي في وجدانها.

ومع ذلك ظهرت أيضاً توجهات معاكسة لهذا التيار القومي - الديني. فالسمعة التاريخية للقدس كمدينة محافظة تقف كالسنديانة في مواجهة تيار الحداثة الآتي من ثقافة الساحل

الفلسطيني والزائر بالأفكار والأنماط السلوكية العلمانية هو تصور مبالغ فيه. فعلى رغم أن القاعدة الاقتصادية للقدس كانت تركز في الدرجة الأولى على خدمات الحج والوقوفيات الدينية، إلا أنها تحولت في بدايات القرن العشرين إلى مركز مهم لشريحة حديثة من موظفي الدولة والجيش ومجموعات مهنية وتجارية جتبتها المكانة الإدارية الجديدة للمدينة.

كما جلبت هذه التحولات نظاماً حديثاً في التعليم أسهم في إفراز نخبة إدارية كوسمبوليتانية تلقت تدريبها في المدارس العثمانية النظامية (الدستورية)، والإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية، والسيمنارات (جمع سمنار) الروسية التي تبارت على كسب عقول السكان المحليين وأفتدتهم. أما الهجرات اليهودية الأولى فجلبت معها الصهيونية والاشتراكية البلشفية كما أوضح نجاتي صدقي في مذكراته.

كما نرى أن هناك وجهين للنهضة الثقافية في نهاية العهد العثماني: من ناحية اتخذت ظاهرة إحياء الاحتفالات الدينية وطقوسها شكل الانبعاث القومي الذي حول رموز الأولياء وأعيادهم إلى أبطال قوميين، ونرى ذلك في مواسم النبي موسى والخضر (مار جريس)، والنبي روبين في يافا. ومن ناحية أخرى أدى انتشار تكنولوجيا المعرفة والاتصالات الحديثة (الجريدة اليومية، الكهرباء، السيارة، وشبكة الطرق المعبدة) إلى ترسيخ قاعدة ثقافة علمانية بدأت تدريجاً في إحلال نفسها مكان الطقوس الدينية.

ومن أهم مظاهر هذه الثقافة الجديدة كان نمو الأحياء البورجوازية الجديدة في غرب المدينة مرافقاً لأليات الانزواء (أو التباعد) الاجتماعي. ففي هذه الأحياء الجديدة، بعكس ما كان عليه الوضع في البلدة القديمة داخل السور، أصبح الوضع الاقتصادي للعائلة وليس الانتماء الطائفي، هو الذي يحدد مكان السكن. وبالمقارنة تحولت البلدة القديمة إلى مأوى لفقراء القدس الذين تعزز اعتمادهم على دعم الأديرة والأوقاف الدينية، والذين لم تسنح لهم ظروفهم للخروج من عالم الأسوار.

إلا أن الآلية الأساسية التي سمحت بتبلور الأجواء الانعتاقية الجديدة اتخذت شكل الانزوائية الاجتماعية التي سمحت للطبقات الاجتماعية الوسطى بالتعبير عن نمط حياتها الجديدة بغض النظر عن دينها أو مذهبها. وتعرض الوجدان الشعبي لهذه الظاهرة في تلك الفترة بالتعبير الشعبي السليط: «شيثان يمران من دون ملاحظة الناس: موت الفقير وزنا الغني»؛ ونستطيع أن نعطي الفضل الأساس لهذه الانزوائية - أي الحماية الاجتماعية الناتجة عن الامتيازات الطبقية - أكثر بكثير من أسوار القصور العالية في السماح لوجهاء القدس وأغنيائها الجدد بأن يتجاهلوا الرقابة الاجتماعية التقليدية، وأن يفرضوا أخلاقياتهم الاجتماعية المستحدثة.

وتجلت هذه الأنماط السلوكية الجديدة في ثقافة الملاهي الليلية، و«الأودة» التي كان يمتلكها شباب العائلات الوجيهة من العازبين، وفي النوادي الاجتماعية والمقاهي الأدبية للمدينة. ولم تكن انتصرت حتى ذلك الحين اعتبارات الخصوصية التي سمحت بظهور هذه الأنماط المنعقدة، ذلك أن الخصوصية كانت لا تزال مبدأً قيماً غير متجذّر، وإنما غياب قدرة الشارع والجمهور العام على التصدي للنخبة الاجتماعية بما يراه مقبولاً أو غير مقبول سلوكياً.

أما في مدن المشرق العربي الكبيرة وفي شرق المتوسط فوقرت المجهولية (anonymity) تلك البطانة الحامية والعازلة للسلوكيات المتحررة. وهذا ما نراه تدريجاً في دمشق والقاهرة والاسكندرية وإسطنبول. أما المدن الساحلية مثل إزمير ويافا وبيروت فتميزت بوجود طبقة تجارية كبيرة ومجموعات إثنية ارتبطت أنماط سلوكها بتوجهات أوروبية عزلتها عن الرقابة الجماهيرية. والأهم من ذلك أن مفهوم «الجماهير» كنسيج جماعي ضابط للقيم العامة المتعارف عليها ورادع للانحراف تحت شرعية الدين لم يكن تبلور إلا في العقد الرابع من القرن.

وفي كل الأحوال يجب عدم الخلط بين الحداثة العربية ووجود العنصر الأوروبي. ففي الكثير من مناطق المشرق العربي - كما هي الحال في تونس أيضاً - نجد أن الدولة أو الشرائح الميركانتيلية (التجارية) المحلية، وفي بعض الحالات شريحة من الأشراف، هم الذين شكلوا آلية إدخال الحداثة إلى مجتمعاتهم.

في بيت المقدس، تحديداً، لم يكن حجم الطبقات الوسطى ولا وجود الجاليات الأوروبية العامل الأهم في السلوكيات الجديدة. ففي مدينة مكونة من ٧٠ ألف نسمة، وهو حجم القدس في مدار القرن، لا مجال لبروز حيّز المجهولية فيها. وحتى التجمعات الأوروبية كانت تكاد تنحصر بمجموعات تبشيرية مسيحية أو عبادية يهودية لا فرصة لأن تتجه في اتجاه الكوسموبوليتانية. وفي هذا المضمار لعبت الامتيازات الأرستقراطية لشريحة الأشراف المحليين والطبقة الوسطى الملحقة بهم الدور الرئيس في خلق هذا المناخ الثقافي الحداثي، وتم التعبير عن هذا المناخ من خلال النظام المدرسي والصحف اليومية والمسارح والنوادي والأحزاب ذات القاعدة العشائرية. والأهم من ذلك أن هذه الشريحة الحضرية كانت في طريقها لأن تصبح طبقة إقليمية على المستوى القومي، تربط طموحاتها ومصيرها بعلاقات عضوية مع مثيلاتها في يافا وحيفا ونابلس ودمشق وبيروت وطرابلس، إلى أن تصدت إليها قوى الثورة الداخلية في الثلاثينات وقضت عليها حرب فلسطين في الأربعينات.

وفي مقابل هذا المناخ الثقافي النخبوي نشاهد ثقافة الطقوس الدينية الشعبية، التي حافظت على ممارسات تحطت الحدود الطبقية، وشبكت الحارات والمحلات في نسيجها الإحيائي. هذه الثقافة الشعبية تجلت في مواسم الأولياء وفي مسيرات الطرق الصوفية وفي ترانيم سبت النور الأرثوذكسية وفي القراءات العامة لفضائل القدس ذات الأصول السحيقة. وليس المراد هنا الإيحاء بأن الثقافة الأولى كانت عصرية فيما أصبحت الأخرى تقليدية، وإنما الإشارة إلى أن تيار الحداثة كان قومياً، وإن جاز التعبير، معلوماً، فيما حافظ التيار الشعبي على طابعه المحلي والحارتي الذي ربط أحياء المدينة ببعضها وفصلها عن الاحتفالات الإقليمية للمدن المجاورة، وهذا الذي جعل من ثقافة القدس الشعبية ثقافة مقدسية محلية أكثر منها فلسطينية عامة.

## أدب السير وتحول الوجدان المدني

ومن المثير رصد هذا التحول في الوجدان الحضري من خلال أدب السير والسير الذاتية، أي من خلال المعاشية الذاتية للحدث. وهنا نتحدث عن ثلاثة أنواع من الخطابات: المذكرات (التي تدون في كهولة الكاتب) والسيرة الذاتية (ذات الهيكل السردي الأكثر تماسكاً) واليوميات (وهي أكثر هذه الأنماط حميمية ومباشرة لأنها في الغالب لا تدون للنشر). وتسمح لنا هذه الكتابات أن نعاين نمو أنماط سلوكية وقيمية جديدة، واضمحلال تقاليد وعصبيات تقليدية من خلال معاشيتها لأفراد مقدسيين مبدعين في حقبتين أساسيتين من تاريخ المدينة المعاصر وهما تجاوز مرحلة اللامركزية العثمانية وبروز الكيانية الفلسطينية الإقليمية، أي المنفصلة عن بوتقتها في القومية العربية والقومية السورية.

إن المشكلة الرئيسية في هذا التصور هي أنها تتركنا في رحمة التجربة الذاتية للحدث كما يرويها كُتاب مميّزون اجتماعياً. فهم في الغالب رجال (قلّة استثنائية منهم نساء) تركوا لنا مذكرات ويوميات مدونة، وإن استطعنا أن نصل إلى معاصرين للحدث من أصول متواضعة من طريق التاريخ الشفوي فنرتطم بذاكرة انتقائية تُسقط على الماضي رؤية الحاضر في شكل ارتجاعي. أما الجانب الإيجابي في هذا الأسلوب الاستقرائي فيقع في أنه يسمح باستيعاب تحولات المدينة الثقافية في إطارها الهيكلي ومن خلال التجربة الذاتية في الوقت نفسه.

وفي القدس خمسة نماذج سيرية تمكنا من الوصول إليها - وهناك الكثير غيرها - لأناس مرموقين ومتواضعين تضيء حياتهم حياة المدينة في القرن المنصرم:

- ◆ مسيرة سيد إقطاعي تخلى عن امتيازات الريف وأصبح من أعيان المدينة (الشيخ عمر الصالح ١٨٨٦ - ١٩٥٦).
- ◆ حياة معلم وأديب طليعي كان رائداً في إدخال الثقافة العلمانية إلى مدارس فلسطين (خليل السكاكيني ١٨٨٧ - ١٩٥٣).
- ◆ حياة زعيم اشتراكي أصبح ممثل الكومنترن في فلسطين ونيطت به مهمة تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني (نجاتي صدقي).
- ◆ قصة طبيب في الجيش العثماني كرس حياته لدرس أوضاع الفلاحين والجذور التاريخية للشخصية الفلسطينية المعاصرة (توفيق كنعان ١٨٨٢ - ١٩٦٤).
- ◆ السيرة الذاتية لموسيقار شعبي نشأ في حارة السعدية في البلدة القديمة وأصبح ضابطاً في البحرية العثمانية (واصف جوهريه ١٨٩٧ - ١٩٧٢).

من الصعب تخيل خمس شخصيات مدنية أكثر تبايناً: الموسيقار الشعبي، الرائد التربوي، الشيخ الارستقراطي، الطبيب الإثنوغرافي، والناشط الشيوعي. الغريب في الأمر أنهم كانوا يتحركون في حيزات متقاطعة من فضاءات المدينة، فهم - باستثناء نجاتي صدقي المطارد من السلطة - كانوا على معرفة حميمة ببعضهم بعضاً، جمعتهم أخوة أصحاب الفكر والمقاهي الأدبية.

في كتاباتهم كشفوا لنا أسرار المدينة التي تظهر لنا اليوم بعد قرن من الزمان معاكسة لسمعتها المحافظة. مدينة تعج بالجدل الفكري والدينامية الثقافية، والغريب أن حيز الدين - في هذه المدينة المقدسة - لعب دوراً لا يكاد يذكر في جدالاتهم وخلافاتهم، ذلك أن قداسة المدينة شكلت الخلفية والارتداد المشهدي لحروب منتصف القرن والتي لم تخب جذوتها. الدين كان في الدرجة الأولى القاعدة الاقتصادية للمدينة، وفي هذه الفترة كان بكل بساطة مصدر الحياة اليومية للقسم الأكبر من سكان المدينة من أصحاب النزل والفنادق والمطاعم، القائمين على الوقفيات والتكايا، المدارس والزوايا الدينية، الحرف الدينية، المصورين، سائقي العربات، مصنعي الشموع والبخور، وطابعي كتب الصلاة والعبادة، إلى آخره.

السير الخمسة التي يعرض لها تكشف إضافة إلى ذلك عوالم معاصرة متخيلة، تتميز باحتمالات متضاربة لما كان في الإمكان أن يحدث في مستقبلهم المنظور. وكما هو متوقع في مدينة متوسطة الحجم، التي كان في الإمكان أن تقطعها مشياً بالأقدام من



طرف إلى طرف خلال ساعات ثلاث، أو على الحنطور أو العربية في أقل من ساعة، اشترك الخمسة في فضاءات الأنتلجنسيا المحلية المتجانسة، ومع ذلك تبينوا مواقف وأنماط حياة وتوجهات وأيديولوجيات وتوقعات متصارعة لا يمكن تخيل مزيجها في حاضرنا المعولم.

ومن الممكن تفسير هذا التباين والتضارب بسمة بسيطة وأساسية من ملامح الحداثة العربية في بداية عصرها. ذلك أن الهجرة من مقيدات الحياة داخل أسوار المدينة وآفاق الحراك الفكري الذي رافق الانتقال إلى أطراف المدينة وإلى خارجها (يافا، اسطنبول، القاهرة، أوروبا والأميركتين) أدت لدخول المثقف إلى فضاءات فكرية غير مرسومة. فاختار بعضهم أن يناضل في سبيل استقلال إقليم مألوف ويمكن التحكم بمصيره داخل تخوم الدولة العثمانية. واختار آخرون - مثل صدقي - طريق الثورة الاشتراكية التي نقلته إلى أجواء الحركة الجمهورية والحرب الأهلية في إسبانيا، ومنها إلى صفوف الأنتلجنسيا السورية واللبنانية. واختارت مجموعة ثالثة - مثل كنعان - أن تبحث عن طريق الخلاص في «روح الأمة» التي وجدها في الثقافة التراثية الفلاحية، وفي الجذور السابقة للوعي القومي في الرواية البيوسية والتوراتية لأرض كنعان. ووجد فريق آخر مراده في تعزيز التلاحم والتواصل الحضاري بين مصر وبلاد الشام من خلال أرض فلسطين، وهي الرؤية التي اختارها لنفسه جوهرية. وخلافاً لهم جميعاً اختار خليل سكاكيني - المربي المتمرد على التقاليد - أن ينأى عن الفكر القومي برمته حين بدأت السلطات العثمانية ملاحظته نتيجة أفكاره العروبية فقال مشاكساً: «ما الذي تبغيه السلطات مني في سعيها لإبعادي عن القدس؟ لست مسيحياً ولا بوذياً ولا مسلماً ولا يهودياً. كما أنني لست عربياً ولا إنكليزياً ولا فرنسياً ولا ألمانياً ولا تركياً، بل أنا فرد من أفراد هذه الإنسانية».

ولعل السكاكيني كان الوحيد - بين أترابه المثقفين - في إعلان نفسه فوق الفكر القومي - بل فوق القومية - لكنه عاش وعمل في مناخ فكري سمح بالتعبير الحر عن هذه الأفكار وترعرعها. الجو السائد عند مدار القرن كان محملاً وحاملاً للإمكانات الفكرية التي أمّنت لهويات عدة متخيلة أن تظهر. فالدستورية العثمانية كانت في طريقها إلى الاختفاء، ولكن من كان سيرثها؟ القومية العربية أم السورية؟ الاشتراكية، الإصلاح الإسلامي أم الهوية الفلسطينية المحلية؟ كل هذه الانتماءات كانت مشروعة ومقبولة. وكان في إمكان المفكر المحلي أن يدافع عنها انتقائياً أو كل على حدة، وأن ينتقل من واحدة وينبذ الأخرى من دون أن يتهم بالخيانة أو النفاق.

## الحرب وضياع المشهد الحضري

كان المشروع الانعتاق في القدس قصير الحياة. وأسهمت الحرب والحركة الصهيونية في فرض قوالب القوقعة الفكرية والشرذمة الإقليمية في حربين دمويتين.

انتهت حرب فلسطين بإعادة رسم خطوط المدينة عمودياً حول المحور الشرقي والغربي للمدينة. وأصبحت الأسوار الجديدة (الإسمنتية) هي الحدود الإثنية والدينية والقومية. وتم طرد جميع الفلسطينيين العرب دون استثناء من قراهم وضواحيهم في القدس الغربية إلى الجانب الأردني. كما طرد جميع اليهود المقيمين في حارة اليهود إلى الضواحي الغربية.

تقسيم المدينة الجديد لم يؤد فقط إلى تحطيم الوحدة الجسدية للمدينة وإلى القضاء على طابعها التعددي وإنما أيضاً إلى إنهاك تواصل المدينة وانفتاحها على ثقافة الساحل. حتى ذلك الحين كانت مدينتنا يافا وحيفا تشكلان صمام الأمان الاجتماعي والمناخ الفكري المحفز للإبداع الثقافي في مدينة تهيمن عليها أيديولوجية الإقطاع الأرستقراطي.

وخلال سنتين تم تهيمش المدينة كلياً. انعكفت القدس إلى داخل ذاتها وتفوقعت وتحولت مدينة ثانية للعاصمة عمان. فيما كانت قبل الحرب عاصمة وطنية للبلاد ومركزاً إقليمياً للامتداد الحضري في الخليل وبيت لحم ورام الله، تتبوأها طبقة سياسية ذات تاريخ عريق أصبحت الآن مدينة مهاجرين ولاجئين. مهاجرون من تجار وعمال جبل الخليل الذين أصبحوا اليوم غالبية سكان المدينة، ولاجئون من القرى الغربية المهجرة، ومن مدن الرملة واللد ويافا المنكوبة.

وعندما «وحد» الاحتلال الإسرائيلي العسكري المدينة وأزال أسوار المدينة الاسمنتية، استبدل بها أسواراً عازلة أكثر إحكاماً وقسوة، وخلق حزاماً من المستعمرات البشرية الاستيطانية تغلف المدينة من محيطها الشمالي والجنوبي والشرقي، ويفصلها عن تخومها العربية الريفية.

ومن تبقى من عرب المدينة تحت الإدارة الجديدة وجد نفسه معلقاً في مطهر دانتي. فهم مجموعة من البشر مقيمين في مدينتهم ولكنهم جردوا من المواطنة. وهم فلسطينيون لا يسمح لهم بالحصول على الجنسية الفلسطينية كما هي الحال بأهالي الضفة والقطاع.

بنى السلطان سليمان القانوني أسوار القدس على أنقاض جدرانها القديمة بغرض حمايتها من الغزو الأجنبي. وبقيت أبواب المدينة العملاقة تغلق عند المغيب لحماية سكانها من

الخطر الخارجي، فأصبحت مع الزمن تمنع مواطنيها من الخروج في ساعات الليل. وهذا الالتباس له معنى فقط إذا نتج عن إجماع أهل المدينة على قبول الحماية، أما إذا سُلّطت يد السلطان على حرية الحراك فيصبح أداة لتحويل المدينة إلى سجن كبير.

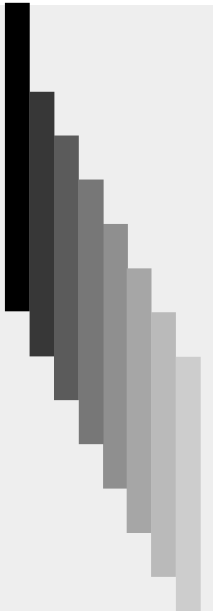
ومن إنجازات الحداثة العثمانية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر فتح منافذ المدينة ليلاً ونهاراً وضمان الأمان والحرية لمن أرادها دخولاً وخروجاً. ومن نتائج هذا الضمان كان بناء الأحياء الجديدة للمدينة خارج السور، وانفتاح المدينة لعمالة وأسواق الأرياف المحيطة، واندماج القدس بالأسواق العالمية.

في كوسمولوجيا القرون الوسطى كانت القدس مركز العالم. وفي النصف الأول من القرن العشرين انطلقت لتتبوأ مكانة إقليمية جديدة عاصمة لفلسطين المتصرفية ثم فلسطين الانتدابية. وبين هذين المنعطفين تبلورت القدس إلى مدينة دنيوية، بعدما كانت مدينة السماء، حيث أفسحت مكائنها المخصصة للعبادة والحج والطقوس والمراسم الدينية إلى فضاء جديد اتسم بالثقافة الحضرية العلمانية ومبدأ المواطنة في بلد متعدد الجنسية.

وفي خلال قرن واحد قصير وصل هذا المشروع الانعتاقى إلى نهايته. أبواب المدينة ما زالت مفتوحة ولا تغلق عند المغيب، لكن هذا الانفتاح هو سراب وغشاء لأسوار جديدة أكثر إحكاماً وانغلاقاً من أسوار المدينة التاريخية. فهناك أسوار الإقامة القانونية التي تفصل حقوق المواطنين اليهود عن حقوق المواطنين العرب. وهناك أسوار النمو الديموغرافي والسكني للفلسطينيين التي تحدد (بمرسوم حكومي) سقف هذا النمو بـ ٣٢ في المئة من مجمل سكان المدينة لا يجوز تجاوزها. وهناك أسوار الناطحات الاستيطانية التي عزلت المدينة العربية عن تخومها الريفية بواقع ١٩ مستعمرة محيطة بالمدينة. وهناك أسوار «المحاسيم» - الحواجز العسكرية - ٦٨ منها تمنع العرب من دخول المدينة دون تصريح عسكري يكاد يكون من المستحيل الحصول عليه.

والآن تشهد المدينة بناء السور العظيم - حائط الفصل العرقي - المكهرب والمغنت. اثنا عشر متراً من الباطون المسلح الذي يسد النفس ويمنع الهواء ويقطع الأرزاق. حيطان المدينة الجديدة الإسمنتية تحاكي أسوارها الحجرية وتهزأ بفظاعتها منها. تنقلنا إلى زمن نوستالجي عندما أنشئت هذه الأسوار لتحمي أهل المدينة من الغازي وتعزز تضامن أهلها من جميع الفئات والأديان. ثم نرتطم بجدران الحاضر فيذ بها جبل يلتف حول عنق المدينة لإزهاق روحها.





## تجربة الانسان الفلسطيني في اللجان القومية عامي ١٩٣٦ و١٩٤٧

اللجنة القومية في نابلس ١٩٣٦ واللجنة القومية في الخليل ١٩٤٧ كنموذجين

عماد البشتاوي\*

---

ان إعادة قراءة تجربة اللجان القومية ببعدها الاجتماعي هي محور هذه الدراسة من خلال تسليط الضوء على تلك التجربة الفريدة في التاريخ الفلسطيني، ودور الإنسان الفلسطيني العادي فيها، هذا من جانب ومن جانب آخر انعكاس تلك التجربة وبشكل مباشر ويومي على حياة الإنسان الفلسطيني.

لقد شكل امتداد اللجان القومية الى مختلف مدن وقرى فلسطين نقطة تحول مهمة في وعي ومفهوم الإنسان الفلسطيني من خلال مشاركته وبصورة فاعلة في النضال الفلسطيني، لاسيما وأن النضال قد اتخذ أشكالاً ومفاهيم مختلفة عما ألفه هذا الإنسان والمتعلق بالمظاهرات والانتفاضات العفوية الى أسلوب النضال المنظم والموجه،

---

\* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الخليل.

وبالتالي فإن مجرد وعي ذلك الإنسان بهذا النوع الجديد من النضال يشكل مادة مهمة للبحث والدراسة.

## اللجان القومية في نابلس عام ١٩٣٦

تُعد الثورة الفلسطينية الكبرى التي اندلعت عام ١٩٣٦ معلماً بارزاً من معالم الحركة الوطنية الفلسطينية، وهي نتاج مجموعة تراكمات عبر سنين سببها النشاط الصهيوني في فلسطين مدعوماً من سلطات الأحتلال البريطاني مجسداً بالهجرة اليهودية وانتقال الأراضي العربية الى اليهود على نطاق واسع، وتكوين فرق عسكرية يهودية للدفاع عن المستوطنات اليهودية وتهريب السلاح. فقد تزايد استملاك اليهود للأراضي العربية بمختلف السبل، وتبع ذلك تهجير الفلاحين وتحويلهم الى عمال يعاني بعضهم البطالة والبعض يجد عملاً مؤقتاً وقلة تجد العمل الدائم<sup>١</sup>. هذا بالإضافة الى امعان الحكومة البريطانية في سن القوانين والأنظمة لتسهيل استيلاء اليهود على الأرض<sup>٢</sup>.

وبالنسبة للتسلح اليهودي فقد قام اليهود بعلم من الحكومة البريطانية ومساعدتها بتهريب كمية كبيرة من السلاح والعتاد الى فلسطين وتوزيعها على المدن والمستعمرات الصهيونية، بالإضافة الى نشاطهم في انشاء تشكيلات ومنظمات ارهابية بمساعدة ضباط بريطانيين في تدريبها وتنظيمها ما جعل عرب فلسطين يلمسون وجودها وقوتها وخطورتها على حياتهم ووجودهم<sup>٣</sup>. وفي المقابل لم تقم بريطانيا بأية خطوات للحد من الهجرة اليهودية أو التسلح اليهودي أو انتقال الأراضي العربية الى اليهود<sup>٤</sup>.

ومع وجود هذه العوامل الداخلية نظر الفلسطينيون الى الدول العربية المجاورة فوجدوا الشعوب العربية تحقق انجازاتها ومطالبها عبر ثورات وانتفاضات ما حدا بالعناصر الوطنية والثورية الفلسطينية الى انتهاج اساليب مماثلة للوصول الى نفس الأهداف في فلسطين. ففي مصر وتحت ضغط النشاط الجماهيري اضطرت بريطانيا الى اعادة دستور عام ١٩٢٣ وفتح باب المفاوضات مع الأحزاب السياسية في مصر والتي انتهت بعقد معاهدة آب ١٩٣٦، أما سوريا فقد بدأت الانتفاضة بتظاهرة جرت في دمشق في كانون ثاني ١٩٣٦، وانتهت الأحداث بالتوصل الى مشروع معاهدة بين الحكومة الفرنسية والسورية في أيلول ١٩٣٦ على غرار المعاهدة البريطانية العراقية لعام ١٩٣٠<sup>٥</sup>.

كانت الشرارة أحداث عام ١٩٣٦ في ١٥ نيسان حيث قام مجموعة من الفلسطينيين باعتراض قافلة يهودية تتكون من عشرة سيارات - كانت تسير على طريق نابلس

طولكرم - فسلبوا المسافريين ثم اصطحبوا ثلاثة من اليهود أطلقوا عليهم النار فمات احدهم على الفور وتوفي الثاني فيما بعد متأثراً بجراحه بينما بقي الثالث على قيد الحياة<sup>٦</sup> وجاء الرد اليهودي المنظم على هذه الحادثة في الليلة التالية من خلال اقتحام بيت عائليتين عربيتين واطلاق النار عليهما قرب مستوطنة بتاح تكفا<sup>٧</sup>. لقد تحولت مراسم دفن اليهودي القتيل في تل أبيب لمظاهرة ضد العرب، وحاول المتظاهرون الهجوم على مدينة يافا الا أن السلطات البريطانية منعتهم من ذلك<sup>٨</sup>. في التاسع عشر من نيسان انتشرت الأخبار في أوساط العرب عن هجوم المستوطنين اليهود ومقتل عربيين ونتج عن ذلك صدامات بين العرب واليهود ما اضطر المندوب السامي (واكهوب) الى اعلان حالة الطوارئ الا أن ذلك لم يمنع من تجدد الصدامات بين العرب واليهود، فقد اضطرت مدينة يافا ووقعت اشتباكات مسلحة في ابي كبير والمنشية<sup>٩</sup>.

ومع تطور الأحداث وتسارعها واطلاق الحكومة قانوني الدفاع والطوارئ<sup>١٠</sup> اعلنت مدينة نابلس الأضراب العام في البلاد كلها الى أن يتم وقف الهجرة اليهودية وذلك خلال اجتماع شعبي عُقد في العشرين من نيسان عام ١٩٣٦ وتقرر فيه تأليف اللجان القومية في كل المدن الفلسطينية لتكون مسؤولة عن الأضراب وعن الحركة والوطنية<sup>١١</sup>.

في ١٩ نيسان ١٩٣٦ انعقد اجتماع في نابلس وقد حضره سليمان عبد الرزاق طوقان رئيس البلدية وعادل زعيتير، وعبد اللطيف صلاح، فريد العنبتاوي، الدكتور مصطفى بشناق، أحمد الشكعة، طاهر المصري، اصف كمال، ممدوح السخن، وأكرم زعيتير<sup>١٢</sup> كما حضر الاجتماع أيضاً حمدي كنعان، عادل الشكعة، ومحي الدين المصري<sup>١٣</sup>.

وبعد هذا الاجتماع كانت المقترحات استغلال الفرصة السانحة والغليان الهائل من أجل أن تحقق الحركة الوطنية الفلسطينية مطالبها وقد كانت المقترحات:-

(١) تتولى نابلس قيادة الحركة الوطنية على اساس قومي لا حزبي والحركة مستقلة في جميع اجراءاتها عن الأحزاب.

(٢) يجب أن توجه القضية توجيهاً صحيحاً أي أنه يجب أن تتجه المقاومة ضد الانجليز أولاً باعتبارهم اساس البلاء، والمسؤولية في كل ما وقع ويقع ملقاة على عاتقهم ولا يجوز أن تنصرف القضية الى مقاومة الصهيونية وحدها.

(٣) تتولى نابلس حالاً وفوراً الاتصال بالبلدان الأخرى لتوحي هي اليها بما ترى عمله دون انتظار لموقف الأحزاب.

٤) لا يجوز أن تهدأ الحركة أو أن يدعوا احد الى تهدئتها ما لم يتحقق هدف من أهدافها، أي أنه لا يجوز أن توقف الحركة على ايدينا معتبرين بالحوادث الماضية، فالوعود المادية ولجان التحقيق وانتظار الوفود لا يغني عن حل كامل.

٥) الهدف العاجل من الحركة وقف الهجرة اليهودية لأن استمرارها يؤدي الى جعل كل عربي في البلاد في خطر الوجود.

٦) الحركة يجب أن تنظم مالياً أي تنظيم الجباية والانفاق.

٧) الحركة تتصل بالقرى اتصالاً وثيقاً فيشترك الفلاح مع المدينة اشتراكاً فعالاً.

٨) الحركة تقوم على التنظيم واول بوادر التنظيم تأليف لجنة قومية تُعطي الصلاحية المطلقة لتنظيم نابلس ولوائها تنظيماً محكماً بحيث يتجدد للعمل كل شيخ وشاب يمكن الافادة منه. وتؤلف في الحين ذاته لجنة احتياطية أخرى لتتسلم مقاليد العمل الوطني على هذه الأسس في حالة القبض على أعضاء اللجنة الأول أو حدوث طارئٍ يحول دون قيامها بواجبها، كما يستحسن أن تؤلف لجنة ثالثة لهذا الغرض.<sup>١٤</sup>

ناقش المجتمعون هذه المبادئ واستوضحوا عن بعضها البعض ثم أقرها كلها. وكان الاقتراح بأن يعلن الاضراب العام في نابلس ثم دعوة سائر مدن فلسطين الى الاضراب استجابة للمطالب الوطنية.

لقد تقرر في هذا الاجتماع تأليف لجنة للعمل وتم الاتفاق على تسميتها (اللجنة القومية) تتولى اولاً الاشراف على سير الحركة الوطنية في المدينة والاتصال الفوري بالبلدان الفلسطينية الأخرى لتأليف لجان قومية على غرار لجنة نابلس تتولى ادارة الحركة الوطنية وتأمين استمرار الاضراب.

كانت نابلس اولى المدن الفلسطينية التي قامت بانتخاب لجنتها القومية والتي تكونت من: عبد اللطيف صلاح، وفريد العنبتاوي، وأحمد الشكعة، وواصف كمال، وحكمت المصري، وأكرم زعيتر.<sup>١٥</sup>

وفي الاجتماع الأول للجنة القومية في نابلس تقرر ما يلي:

١) اعداد بيان يوزع في فلسطين تدعى فيه كل مدينة وقرية الى اختيار لجنة قومية.

٢) الابرار الى شخصيات وطنية بنياً تأليف اللجنة القومية في نابلس ورجاء اعتمادها والدعوة الى تأليف لجنة على غرارها في كل مدينة وقرية.



٣) اشتراك القرويين وممثلي جميع القرى في الحركة الوطنية والشروع في الاتصال بالقرى.

٤) دعوة أهالي نابلس الى الاستمرار في الاضراب حتى اشعار آخر.<sup>١٦</sup>

لقد كان واضحاً ومن خلال البيان الذي نشرته الصحف الفلسطينية أن اللجنة القومية في نابلس ممثلة بجميع هيئاتها ومختلف طبقاتها هي التي تزعمت قيادة اللجان القومية في فلسطين، كما نلاحظ تركيزها على دعوة أهالي القرى في الأشتراك في اللجان القومية.<sup>١٧</sup>

في يوم ٢٠ نيسان كانت الاستجابة الأولى من أهالي نابلس للجنة القومية فتم اعلان الاضراب العام، وهو اليوم الاول في الاضراب وقد استجاب الجميع لهذا الاضراب<sup>١٨</sup> وأخذت الحكومة البريطانية احتياطات كثيرة اذ نصبت المدافع الرشاشة على سطوح البيوت واحتل الجنود دار الحكومة قرب المستشفى الوطني. وعقدت اللجنة القومية في نابلس جلسة مستعجلة بحضور جميع أعضائها وتقرر بعد هذا الاجتماع:

١) استثناء المخايز من الاضراب العام أما المقاهي فلا تفتح الا بعد المغرب ليكن الجمهور على صلة بالحوادث العامة.

٢) تشترك السيارات في الاضراب ولا يباح لسائق أن يسوق سيارة الا باذن خاص من اللجنة القومية ولظرف طارئ.

٣) يجرى التناوب بين الصيدليات فتفتح صيدلية واحدة كل ٢٤ ساعة.

٤) تكليف لجنة الطلاب بنابلس اذاعة بيان على طلاب فلسطين تدعو فيه الى اضراب المدارس كلها.

٥) تكليف أمين سر اللجنة أكرم زعيتر إجراء اتصالات تلفونية استعجالياً لتأليف لجان قومية في جميع مدن فلسطين.

٦) تقرر الابراق الى المندوب السامي ببرقية توضح أسباب الأضراب وتعلمه اصرار الأمة على الاضراب حتى تتحقق مطالبها، تكون اولى بوادره وقف الهجرة اليهودية فوراً.<sup>١٩</sup>

كانت يافا ثاني مدينة تستجيب لنداء تشكيل اللجان القومية وقد تألفت لجننتها القومية في ٢٠ نيسان ١٩٣٦ وتألفت من يوسف عاشور، راغب أبو السعود الدجاني، محمود أبو خضرا، الفرد روك، حمدي النابلسي، فخري النشاشيبي، ابراهيم الشنطي، وسعيد الخليل.<sup>٢٠</sup>

وفي يوم ٢١ نيسان تشكلت لجان قومية في كل من عكا وحيفا والرملة والخليل والناصرة وبيسان وقلقيلية.<sup>٢١</sup> وبالنسبة للقدس فقد نشب خلاف حول تأليف اللجنة القومية ومع ذلك فقد أذاع كل من عوني عبد الهادي، عزة دروزة، عبد الحميد شومان، وعجاج نويهض بياناً استجابوا فيه لدعوة نابلس.<sup>٢٢</sup> مدينة طولكرم تشكلت لجننتها القومية في ساعات متأخرة مساءً ذلك اليوم.<sup>٢٣</sup>

استمرت اللجنة القومية في نابلس في عقد جلساتها المتتالية لدراسة الأوضاع فقد عقدت جلسة في ٢١ نيسان ١٩٣٦ حضرها بالإضافة الى أعضائها سليمان عبد الرزاق طوقان، عادل زعيتر، الدكتور مصطفى بشناق، سعيد كمال، طاهر المصري، عادل التميمي، عبد الرحمن التميمي، داود طوقان، قدي طوقان، توفيق أحمد السخن، وجميل كمال وقد تقرر في نهاية الاجتماع:-

(١) الاستمرار على الاضراب والنضال.

(٢) اختيار لجنة تدعى (لجنة الاضراب) تتولى الاشراف عليه وتنبثق منها لجنة لاسعاف المحتاجين والعاطلين، تتالف من: أحمد الشكعة، توفيق أحمد عرفات، واصف كمال، ممدوح السخن، طاهر المصري، عزت الطاهر، عادل التميمي، وعبد الرحيم التميمي.<sup>٢٤</sup>

(٣) الدعوة لتظاهرة كبرى تقام يوم الجمعة ويشترك فيها القرويون.

(٤) استنكار اعتداءات الجنود البريطانيين على الآمنين ومقتل طفل في الثانية عشرة من عمره.

(٥) استنكار استمرار المندوب منح رخص للهجرة.<sup>٢٥</sup>

في ٢٢ نيسان ١٩٣٦ بدأت اللجنة القومية في نابلس تتخوف من نتائج تطبيق مبدأ الاضراب تطبيقاً صارماً حيث أن من الممكن أن تؤدي الصرامة في التطبيق الى ضيق عام لا يُحتمل، أو تدمر من شأنه أن يهون العزائم لا سيما ان المشوار طويل، ولما كان ممدوح السخن هو مدير نادي الاتحاد الرياضي وقائد كشافته التي تشرف على حركة الأضراب وحراسة المدينة فقد عُهد اليه إلى دعوة زعماء الأحياء الى اجتماع يعقد في مساء ٢٢ نيسان في مقر النادي. لقد امتلأ النادي بالرجال ودارت مناقشات طويلة وحادة وانتهى الأمر الى تقسيم المدينة الى خمس عشر منطقة، وانتخب لكل منطقة

لجنة تتولى الاشراف على اضرابها وتأمين حاجاتها وفض المنازعات الناجمة عن تفسير مدى الاضراب، وتم تعيين حدود كل منطقة في حارات نابلس: الغرب والحبلة وقيسارية والعقبة والياسمينة والقرويون.

اجتمع ممثلو تلك الاحياء وبعد المناقشات وبغية تيسير الامور على الاهالي وتأميناً لاستمرار الاضراب تقرر بأن يسمح بان تباع الخضار واللحوم في البيوت على نطاق محدود، ويحظر على الباعة رفع الاسعار وتجري مراقبتها بشدة، ويجري الاتصال بلجنة السواقين لتأمين الضرورات التي لاغنى عنها، ويجري الاتصال بلجنة الاسعار والماليه لتأمين معيشة الحجارة والبنائين المحتاجين الذين كانوا يعيشون على وارداتهم اليومية حيث يقدم لهم ما يكفل قوتهم الضروري.<sup>٢٦</sup> والاتصال بدائرة الاوقاف حيث يقتصر التدريس في المساجد على الشؤون الوطنية والتركيز على الجهاد، وتأذن اللجنة لمن يحتاج الى فتح دكانه لغرض ضروري ان يفتحها امام مراقب وياخذ ما يحتاجه ويغلقها فوراً ومن دون تعاطي البيع والشراء، والكتابة الى اللجان القومية في مدن فلسطين بضرورة حجب الحاجات الضرورية عن الاجانب وعدم توريدها اليهم اشعاراً لهم بوجود اضراب، والكتابة الى اللجنة القومية بيانا لمنع توريد الخضار الى تل أبيب منعاً باتاً. وقد تم انتخاب السيدين: عزة المصري وحامد الشنتير للاتصال بباعة الخضار وتمثيل لجنة الاحياء لديهم.<sup>٢٧</sup>

وفي مساء ٢٣ نيسان عقدت اللجنة القومية اجتماعاً دعت اليه كثيرين من غير أعضائها من المفكرين والتجار والشباب في المدينة، فطرح التجار موضوع البنوك واستحقاقاتها وحيلولة الاضراب دون تسديد (الكمبيالات) وما قد يسفر عنه الامر من افلاسات، فتقرر تأليف لجنة من أحمد الشامه، سعيد كمال، توفيق أحمد عرفات، فريد عنيتاوي، عزت الطاهر، طاهر المصري، جميل كمال، عبد الرحيم التميمي، وعبد الفتاح أغا طوقان لتولي معالجة هذا الامر.<sup>٢٨</sup>

وحرصاً من اللجنة القومية في نابلس على الاستمرار في الاضراب وسكانها متحدين فقد اذاعت بيانا في ٢٧ نيسان ردت فيه على الاتهامات، وقالت فيه « أن اللجنة القومية في نابلس وحرصاً على دوام الاتحاد وعلى شرف الغايه التي من أجلها أضربتم ترجوكم التروي في تصديق الاشاعات المختلفة التي لا تؤدي إلا الى تعكير الحركة الوطنية، وهي تأمل من كل عربي أبي في هذه المدينة العربية الشجاعة أن لا يسير وراء الإشاعات التي تؤدي الى الفوضى والشغب، وخشية اتهام الأبرياء والحملة عليهم نرجو من كل من يلاحظ أي خطأ من أي فرد أن يخبرنا به لنجري التحقيق الدقيق وذلك قبل ترويج الإشاعات الضارة».<sup>٢٩</sup>

كانت اللجنة القومية في نابلس تتلقى باستمرار في مركز عملها في نادي الاتحاد الرياضي تقارير ومعلومات من الأهالي عن الذين يخرقون الإضراب، ومع تزايد الاتهامات وعدم التحقق منها فقد أوشكت حوادث دامية إن تقع بسبب الإدانة بمحض الشبهة، وأذاعت اللجنة القومية في ٢٩ نيسان بيانا تدعو فيه الناس الى التثبيت، وتألّفت على إثر ذلك محكمة وطنية من: أكرم زعيتر، وممدوح السخن لمحكمة المتهمين بالخروج على الأمة، وتم تعيين ساعة واحدة من النهار للمحاكمات، فصارت ترد قضايا اتهام بالاتصال بالبوليس مثلا، أو بقبول وظيفة بوليس إضافي، فيحضر المتهم الى النادي وبحضور جمهور غير تعقد المحكمة في إحدى غرف النادي وفيها منضدة عليها القران الكريم، ويؤتى بالمتهم وينادي المنادي الى (من عنده شهادة يتقدم) ويقسم الشهود اليمين أن يقولوا الصدق ثم يطالب المتهم بالدفاع عن نفسه، حتى إذا تبينت براءته أعلنت براءته، وإذا كان ثم شبهة يطلب إليه إن يقسم والحضور وقوف (اقسم بالله وبكتبه ورساله وآياته ألا أتصل بإدارة البوليس، وأن أقوم بواجبي في خدمة أمتي والإخلاص لها والله على ما أقول شهيد). ثم يصفق الحضور ويبادرون الى تهنئته وقد يرافقونه الى بيته في موكب واحتفال<sup>٣٠</sup> وقد أخذ الكثيرون يجيئون الى النادي طالبين محاكمتهم ليكون جبينهم ناصعا أمام الناس، ويطلبون أن يقسموا اليمين لتسجيل برائتهم.

وأشرفت اللجنة القومية في نابلس على التظاهر النسائية التي خرجت في شوارع نابلس في ١٩٣٦/٥/١ فقد تألفت لجنة مكونة من يسرى سعيد طوقان، لمياء عاشور، دمية كمال، لميس عرفات، شهيرة كمال، اميمه الخياط، الهام المصري، وتم اختيار يسرى سعيد طوقان سكرتيرة وربيحة عرفات أمينة صندوق<sup>٣١</sup>.

ويصف أكرم زعيتر أمين السر اللجنة القومية في نابلس الأسبوع الأول من شهر أيار ١٩٣٦ بأنة أسبوع القرى، ففي الثاني من أيار ١٩٣٦ وهو اليوم الأول لأسبوع القرى هرعت الى سلفيت وفود غفيرة من القرى مرده، جماعين، سكاكا، ياسوف، فرخة، بروقين، الساوية، اللبن، عموريه، ويتما. وبعد أن تم احتشاد الالوف ساروا في تظاهرة كبرى تهتف بسقوط الاستعمار وتنشد وتكبر نحو مركز البوليس في القضاء، فسلموه بيانا ليرفع الى المندوب، وبعثوا بصورة منه الى القائمقام في نابلس لرفعها الى المندوب وبنسخه أخرى الى اللجنة القومية، يقولون في نهايته (إننا نتضامن مع قومنا الى ما شاء الله حتى تنال الأُمه مطالبها)<sup>٣٢</sup>.

وتلقت اللجنة القومييه في نابلس دعوة من وجوه ومخاتير وائمة ومشايخ طوباس، طولزة، طمون، بيت دجن، عرب المساعيد، ياصيد، عصيره الى حضور المؤتمر القروي العام الذي عقد في ٥ أيار ١٩٣٦ وفي اليوم الثاني لاسبوع القرى، كان الاجتماع الكبير في قرية (بديا) قد زحفت إليه وفود من زيتا، الطيرة، كفل حارس، دير استيا، حارس، قراوة، سرطة،

كفر الديك، رافات، دير بلوط، كفر قاسم، الزاوية، مسحه، سنيرية، كفر خريش، كفربرا. ٣٣

لقد كان يوم ٤ أيار ١٩٣٦ يوم التلاحم لجميع أهالي نابلس فقد قام وفد اللجنة القومية ومعه عدد كبير من وجوه المدينة وشبابها، وفي مقدمتهم رئيس البلدية بالتوجه الى قرية قصره فاستقبلتهم مواكب القرويين فرسانا على الخيول، وأخذت مواكب القرى بأعلامها تصل الى قرية قصره وهي مواكب: بيت دجن، سالم، دير الحطب، بأعلامها الخضراء، وعزموط، عسكر، بلاطه، بيتا بأعلامها الحمراء، وروجيب، بيت فوريك، عورتا بأعلامها البيضاء، ٣٤ ويانون، قبلان، حوريش، المجدل، دوم، تلفيت، قريوت، جالود تحمل صوره مكبرة للشهيد القسام، وأكد الحضور على نيات سلطات الانتداب المبيتة للقرى ومحاولتها الخبيثة التفريق بين القرى والمدينة، وأهمية اشتراك القرويين في الجهاد والثورة.

أما الاجتماع أو المؤتمر القروي الشامل فقد عقد يوم ٥ أيار (اليوم الخامس عشر للإضراب) فمنذ صباح ذلك اليوم أخذت وفود القرى تنحدر الى غور الفارعة بأعلامها وخيولها بحيث كان الغور عند الظهيرة مكتظا بالآلاف من قرى بيتا، عقربا، بيت دجن، طوباس، عصيره الشمالية، طولوزة، بيت فوريك، عسكر وبلاطه، سيريس، صانور، ميشلون، الزبادة، صير، طمون، عرب المساعيد، وفود قرى جنين كما حضر هذا المؤتمر وفد اللجنة القومية في نابلس. ٣٥

## مؤتمر اللجان القومية

جاءت الدعوة لعقد مؤتمر اللجان القومية كخطوه متقدمة على صعيد حركة المقاومة الفلسطينية، فقد بادرت اللجنة العربية العليا الى الإبراق الى اللجان القومية بالدعوة الى عقد مؤتمر (نرجو انتداب خمسة أعضاء من لجتكم ليمثلوها في المؤتمر الذي تقرر عقده بالقدس). ٣٦

اجتمعت اللجنة القومية في نابلس وقررت أن يمثلها في مؤتمر اللجان القومية فريد عنبتاوي، أكرم زعبيتر، أحمد الشكعه، واصف كمال، وحكمت المصري. وتقرر في الاجتماع دعوة المؤتمر الى الاستمرار في الإضراب وتصعيد المقاومة وإعلان العصيان المدني بالامتناع عن دفع الضرائب فوراً.

يوم ٩/٥/١٩٣٦ كان آخر أيام أسبوع القرى وهو يوم قرية بورين حيث ذهب اليها موكب كبير من نابلس تتقدمهم اللجنة القومية وأقبلت على القرية مواكب القرى: كفرليل، عورتا، بيتا، أودله، حوارة، عينبوس، عوريف، عصيره، مادما، تل، العراق، رفيديا. ٣٧

ويوم ١١/٥/١٩٣٦ عقد في نابلس المؤتمر القروي بحضور اللجنة القومية وقد ضم هذا المؤتمر ممثلي اللجان القومية في طولوزة، عصيره الشمالية، صانور، ميشلون، صير، عقابه،

الجديدة، سيله الظهر، بيت امرين، ياصيد، زواتا، بيت وزن، الزيادة، وعزون، واتخذ المؤتمر القرارات التالية:-

(١) إن القرويين مشتركون مع أمتهم في نضالها وهم يحبطون كل محاولات لفصلهم عن جسم الامة

(٢) أنهم يؤيدون قرارات مؤتمر اللجان القومية كل التأييد ويعلنون امتناعهم عن دفع الضرائب إذا لم تقف الهجرة اليهودية.

(٣) إذا لم تقف الهجرة اليهودية يدعو القرويون أمتهم الى تقرير الخطوه الثالثة التي تحمل بريطانيا على تغيير سياستها. وهم مستعدون للتضحية الى أبعد حدودها (وقد كانت الثورة المسلحة تفسير الخطوة الثالثة باعتبار أن الاضراب هو الخطوة الأولى وأن العصيان المدني هو الخطوة الثانية)

(٤) يستنكر المجتمعون إقامة مخافر بوليس في بعض القرى على حساب القرويين ولا يقرون ذلك.<sup>٣٨</sup>

### اللجان القومية في الخليل عام ١٩٤٧

بعد احد عشر عاما من تكوين اللجان القومية عام ١٩٣٦ وكرد فعل على قرار التقسيم كان انبعاث اللجان القومية عام ١٩٤٧، وعلى الرغم من أنها حملت الاسم السابق، الا ان ولادتها كانت مختلفة تماما عن ولادة اللجان القومية الاولى التي تألفت بارادة شعبية ثم راحت بعد تأليفها تبحث عن قيادة، أما في سنة ١٩٤٧ فالقيادة القائمة هي التي انهمكت في البحث عن اللجان.<sup>٣٩</sup> وسنحاول من خلال هذا البحث التعرض الى اللجنة القومية في الخليل نموذجا حيث تعتبر من اللجان القومية الاولى التي تشكلت في فلسطين وذلك قبيل قرار التقسيم.<sup>٤٠</sup> فقد تم عقد اجتماع كبير في ديوان التميمي في الخليل في الثامن عشر من تشرين اول عام ١٩٤٧ وبحضور اكثر من خمسة الاف شخص من مختلف طبقات الشعب الذين هرعوا تلبية لنداء الوطن، والعمل على توحيد الجهود والوقوف امام الاخطار المحدقة بفلسطين صفا واحدا.

قام الحضور بانتخاب لجنة تحضيرية ضمت كلاً من: الشيخ الجعبري رئيس بلدية الخليل، عبد الحي عرفة، حكمت الحموري عن النادي الثقافي، مخلص عمرو عن رابطة المثقفين العرب، أنور نيروخ عن نادي الشباب الرياضي، عبد العظيم الخطيب عن حي بني دار، يونس زلوم عن حي الحرمة، الشيخ شكري ابو رجب عن حي المدرسة، ابراهيم عوض النتشة، عن حي السواكنة، كمال بدر عن حي القزازين، صلاح عابدين عن حي الشيخ، رشيد سنقرط عن حي القلعة، حجازي دويك عن حي العقابة، عبد الغني ابو خلف عن حي الحوسية، عيسى

حسن عبد الرحيم عن حي كيكون، حمد احمد زرافة عن حي المشاركة الفوقا، مناع ابو حماد عن حي المشاركة التحتا، واسماعيل عثمان المحتسب عن حي المحتسبين.<sup>٤١</sup>

بعد ذلك تم تنظيم الجهاز القومي وتأليف اللجنة القومية في الخليل من: الشيخ محمد الجعبري (رئيسا) وعضويه كل من: عبد الحي عرفة، عبد الله بشير عمرو، رشاد الخطيب، داود القواسمه، احمد فرحات الشرياتي، حامد علي العويوي، عثمان التكروري، عبد الغني ابو خلف، أحمد بيوض التميمي، حجازي دويك، كمال بدر، حمدي سلطان، محمد شاور، عمران طهبوب، عبد الرحيم الشريف، سليمان عبيدو، أنور نيروخ، حكمت الحموري ومناع ابو حماد.<sup>٤٢</sup>

وبعد تشكيل اللجنة القومية في الخليل وتشكيل غيرها من اللجان في المدن الفلسطينية الاخرى اصبحت هي المسؤولة الوحيدة المباشرة عن الامور المعيشية للسكان وعن الامن الداخلي، وعن المجابهة المسلحة، وعن جمع المال لمساعدة المقاتلين وعن الاشراف الكامل عليهم.<sup>٤٣</sup>

ان اللجنة القومية في الخليل هي هيئة شعبية تمثل الاهالي في الخليل، وتعد لجنة فرعية للهيئة العربية العليا ترتبط بتعليماتها وانظمتها، وهي صلة الوصل بين الشعب والسلطات الحكومية والاهلية في الامور والشؤون الاجتماعية كافة والتي تتعلق بالاهالي، والحكم في حل المنازعات والخلافات الاهلية، والمرجع في كل أمر له صلة بالشعب.<sup>٤٤</sup>

وللجنة القومية ان تبحث في اي موضوع او مشكلة رسمية او اهلية وان تبدي رأيها القومي في جميع المسائل التي لها مساس بمصالح الشعب وأن تناقش الحكومة في كل ما يحول دون تقدمه او رفاهيته، ومكلفة بمطالبة كل ما من شأنه حفظ حقوق وسلامة وطمأنينة الجمهور. واللجنة القومية دائمة ومستمرة ما لم تحل نفسها أو تأمر الهيئة العربية العليا بحلها وفق الظروف والاحوال التي تتراءى لها. اما ميزانية اللجنة فتتظم على اساس الجبايات القومية والتبرعات الشخصية وما تقدمه الهيئة العربية لها.

لقد تركت الهيئة العربية العليا الامور الداخلية للجنة القومية بيد اللجنة نفسها فإذا وجدت شذوذاً من أحد أعضائها لأي سبب من الاسباب يضر بأهدافها أو غاياتها جاز لها بعد التحقق في الامر بقرار يوافق عليه ثلاثة أرباعها، إما ان تنذره أو تطلب منه الاستقالة، وحين الاستقالة تبليغه قرار قبول استقالته، وان لم يستقل تفصله في الحال وتحذف اسمه دون بيان اسباب ذلك.

وبالنسبة لجلسات اللجنة القومية في الخليل نجد ان النصاب القانوني لعقد الجلسات يجب ان يكون بزيادة عضو عن النصف من مجموع الاعضاء، واذا لم يكتمل النصاب القانوني فتؤجل الجلسة لاجتماع آخر على أن يدعو امين السر جميع الاعضاء كتابة ويتم النصاب القانوني بزيادة عضو واحد عن ثلث الاعضاء، أما اذا استقال عضو من أعضاء اللجنة أو

اقليل أو توفي يحق للجنة انتخاب غيره بموافقة ثلثا الاعضاء والحاضرين. وإذا تخلف عضو من أعضاء اللجنة عن حضور الجلسات خمس مرات دون عذر شرعي يعتبر مستقيلاً.<sup>٤٥</sup>

وبالنسبة الى التقسيم الوظيفي داخل اللجنة القومية في الخليل نجد أنها تتكون من رئيس اللجنة القومية وأمين السر وأمين الصندوق وبقية الاعضاء. حيث أن أمير السر مسؤول عن توجيه الدعوات للأعضاء لحضور الجلسات والاجتماعات القومية العامة، وتأمين وصولها وتقديم جدول الاعمال للجنة أثناء انعقادها للنظر فيه، وتدوين وقائع الجلسات في سجل، خاص وابلاغ القرارات لمن يعينهم الامر، والمحافظة على أوراق اللجنة القومية وموجوداتها وخاتمتها الرسمي، وتوقيع جميع المراسلات وتأمين وصولها الى مراجعها، وإدارة شؤون الموظفين وترتيب سير اعمالهم، وتنظيم كشوفات رواتب الموظفين والمصادقة على صرفها.<sup>٤٦</sup>

اما أمين الصندوق فمسؤول عن حفظ اموال اللجنة من صادرات وواردات في سجلات خاصة تحفظ لديه في مصرف عربي باسمه واسم أمين السر، ولا يجوز سحب اي مبلغ منها الا بتوقيعها معا، شرط ألا يصرف اي مبلغ من المال الا بقرار من اللجنة او اكثريتها حسب مقتضى الحال، وبموجب إيصالات رسمية يصادق عليها أمين السر، كما يقوم أمين الصندوق بتقديم كشوفات الايرادات والمصروفات شهرياً للجنة وحفظ جميع المعاملات المالية لديه للمراقبة والتدقيق.

إن للجنة القومية الحق في تشكيل لجنة اولجان فرعية للقيام ببعض اوكل غاية من غاياتها ولهذه اللجان حق الاستنارة بآراء من ترى فيهم الخبرة والدراية فيما يعهد اليها.<sup>٤٧</sup>

كان للجنة القومية في الخليل وفي غيرها من المدن الفلسطينية العديد في المشاكل لعل أبرزها انعدام وجود سلطة مركزية او قيادة عليا لها. ولم يكن هناك أي رابط يجمع بين اللجان القومية المتعدده او بتعبير آخر إن انعدام وجود قياده موحده وانعدام وجود قياده عسكرية ألقى على كاهل اللجان القومية أعباء فوق قدرتها، فكل لجنة قومية جابهت بمفردها مصير مدينتها، وكانت هذه المجابهه بحد ذاتها اكبر بكثير من قدرات لجنة انبثقت لاغراض محلية.

## الهوامش

<sup>١</sup> طهبوب، فائق: الحركة العمالية والنقابية في فلسطين ١٩٢٠-١٩٤٨، الكويت، شركة كاظمة للنشر والترجمة، ١٩٨٢، ص١٤١-١٤٢.

<sup>٢</sup> نوفل، أحمد وآخرون: القضية الفلسطينية في أربعين عاماً بين ضراوة الواقع وطموحات المستقبل، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩، ص٤١.

<sup>٣</sup> زعيتر، أكرم: القضية الفلسطينية، عمان، دار الجليل، ١٩٨٦، ص١٠٠.

<sup>٤</sup> خله، كامل: فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩، بيروت، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٤، ص٣٨٦.



<sup>٥</sup> الكيالي، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠، ص ٢٦٠ وانظر أيضا J.C. Hurewitz: The struggle for Palestine, New York, K w.w norotn and company inc, 1950, p67.

<sup>٦</sup> الشقيري، أحمد: أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية، بيروت، دار النهار للنشر والتوزيع، ١٩٦٩، ص ٢١١

<sup>٧</sup> دروزة، محمد عزة: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٥٩، ج ١، ص ١٢١

<sup>٨</sup> جريدة الدفاع، ع(٥٨٣)، ١٩ نيسان ١٩٣٦ وانظر أيضا

hurewitz : the struggle for Palestine, p67-68

<sup>٩</sup> ياسين، صبحي: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩، القاهرة دار الهنا، ١٩٥٥، ص ١٩٩

<sup>١٠</sup> كنفاني، غسان: ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ في فلسطين، خلفيات وتفصيل وتحليل، مجلة شؤون فلسطينية، بيروت، ع٦، كانون ثاني ١٩٧٢، ص ٦٥-٦٦

<sup>١١</sup> جبارة، تيسير (إعداد): وثائق فلسطينية في دور الأرشيف البريطانية، الخليل، جامعة الخليل، مركز البحث العلمي، ١٩٨٦، ص ٢٧١ ونظر أيضا

john Marlowe: Rebellion in Palestine Klondon, cresset press, 1946,p163

<sup>١٢</sup> زعيتر، أكرم: يوميات أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣١-١٩٣٩، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠، ص ٦٠

<sup>١٣</sup> يؤكد أكرم زعيتر أن هؤلاء الثلاثة كانوا يشاهدون الاجتماع دون مشاركة وبالصدفة.

<sup>١٤</sup> زعيتر، أكرم: الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٦١

<sup>١٥</sup> المصدر نفسه، ص ٦٢

<sup>١٦</sup> المصدر نفسه، ص ٦٢-٦٣

<sup>١٧</sup> جريدة الدفاع، القدس، ع(٥٨٤)، ٢٠ نيسان ١٩٣٦

<sup>١٨</sup> زعيتر، أكرم: القضية الفلسطينية، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥، ص ٩٨

<sup>١٩</sup> زعيتر، أكرم: الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٦٥

<sup>٢٠</sup> المصدر نفسه، ص ٦٦

<sup>٢١</sup> المصدر نفسه، ص ٦٧-٦٨

<sup>٢٢</sup> في ليل ٢٢ نيسان ١٩٣٦ تم تأليف لجنة قومية في القدس وقد تألفت من: عبد الحميد شومان، جميل وهبه، فائز الحداد، توفيق وفا الدجاني، الشيخ عبد الباري بركات، الدكتور حسام الدين أبو السعود. أنظر أكرم زعيتر: الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٧٢

<sup>٢٣</sup> في الرابع والعشرين من نيسان تم تشكيل لجان قومية في القدس، يافا، حيفا، نابلس، غزة، الخليل، اللد والرملة، صفد، طولكرم، جنين، الناصرة، عكا، طبريا، بيت لحم، المجدل، رام الله، بيسان، خان يونس، شفاعمرو، الفالوجة، صفوريه، قلقيلية، وأريحا. أنظر اميل الغوري: فلسطين عبر ستين عام، عمان، مطابع دار الشعب، د. ت، ص

<sup>٢٤</sup> زعيتر، أكرم: الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٦٩-٧٠

<sup>٢٥</sup> المصدر نفسه، ص ٧١

<sup>٢٦</sup> المصدر نفسه، ص ٧١

<sup>٢٧</sup> المصدر نفسه، ص ٧١

<sup>٢٨</sup> المصدر نفسه، ص ٧٢

<sup>٢٩</sup> المصدر نفسه، ص ٧٧

<sup>٣٠</sup> المصدر نفسه، ص ٧٩

<sup>٣١</sup> المصدر نفسه، ص ٨١-٨٢

<sup>٣٢</sup> المصدر نفسه، ص ٨٥

<sup>٣٣</sup> المصدر نفسه، ص ٨٥-٨٦

<sup>٣٤</sup> المصدر نفسه، ص ٨٦

<sup>٣٥</sup> المصدر نفسه، ص ٨٧

<sup>٣٦</sup> تألفت اللجنة العربية العليا في ٢٥ نيسان ١٩٣٦ من: الحاج أمين الحسيني رئيساً، عوني عبد الهادي سكرتيراً وممثلاً لحزب الاستقلال، جمال الحسيني ممثلاً للحزب العربي، راغب النشاشيبي ممثلاً لحزب الدفاع، حسين الخالدي ممثلاً لحزب الإصلاح، عبد اللطيف صلاح ممثلاً لحزب الكتلة الوطنية، يعقوب الغصين، ممثلاً لمؤتمر الشباب، يعقوب فراج ممثلاً للارتوذكس وحزب الدفاع، الفرد روك ممثلاً للكاثوليك والحزب العربي، أحمد حلمي عبد الباقي مستقلاً. أنظر جريدة فلسطين، يافا، ع ٤٧-٣٢٣٨. ٢٦ نيسان ١٩٣٦

<sup>٣٨</sup> المصدر نفسه، ص ٩٥-٩٦

<sup>٣٩</sup> الكيالي، عبد الوهاب: وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني ١٩١٨-١٩٣٩، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٦٨، ص ٣٩٨-٣٩٩

<sup>٤٠</sup> الحوت، بيان: القيادات والمؤسسات في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، بيروت، مؤسسه الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص ٥٩١ - ٥٩٢

<sup>٤١</sup> العارف، عارف: نكبة فلسطين والفردوس المفقود ١٩٤٧ - ١٩٥٠، بيروت المكتبة العصرية، د.ت، ج ٢، ص ٧٥٢

<sup>٤٢</sup> جريدة الدفاع. القدس ع (٣٧٨٤)، ١٩ تشرين أول ١٩٤٧

<sup>٤٣</sup> العارف، عارف: النكبة، ج ٢، ص ٧٥٢ وأنظر أيضاً: جريدة الدفاع القدس ع (٣٨٢١)، ٤ كانون أول ١٩٤٧

<sup>٤٤</sup> صبري، بهجت: وثائق اللجنة القومية العربية بنابلس ١٩٤٧-١٩٤٩، عمان، ١٩٩١، ص ٧

<sup>٤٥</sup> أرشيف دولة إسرائيل، القدس ملف ١٧/٤١/١٩/٥٨٣ وثيقة رقم ١٣/٢ بتاريخ ٣ كانون أول ١٩٤٧ (النظام الداخلي للجنة القومية في الخليل)، ص ١

<sup>٤٦</sup> أرشيف دولة إسرائيل، النظام الداخلي للجنة القومية في الخليل، ص ١-٢

<sup>٤٧</sup> المصدر نفسه ص ٣-٤

## «شو تقول يا طير»

رأي في الحكاية الشعبية وسبل تطويرها

سونيا نمر\*

«قال الغول للشاطر حسن، ببعتك لأختي أكبر مني بشهر وأوعى مني بدهر إن لقيتها بتطحن سكر ورادة بزازها لورا، قرّب ومصّ من بزها اليمين وبعدين من بزها الشمال. ون لقيتها بتطحن ملح وعيونها حمر اوعى تقرب عليها. راح لقاها بتطحن سكر وحاطة بزازها ورا ضهرها، مصّ من بزها اليمين، قالت: مين مصّ من بزّي اليمين صار أعلى من إبني عبد الرحيم. مصّ من بزها الشمال، قالت مين مصّ من بزّي الشمال صار أعلى من إبني عبد الرحمن...»

«يوم من الأيام أجى موسم الحج، أبن السلطان بدو يروح على الحج، قال لأمه ديري بالك على مرتي حتى ارجع. كانت أمه تغار من مرته كتير كتير، ولما سافر، أجت امه وطردت مرته من الدار وبحشت هالقير في حديقة القصر ودفنت فيه هالخاروف. وراحت صبغت شعرها وغيّرت حالها تصارت تبين حلوة وصغيرة، وعملت حالها مرته، وقعدت بالقصر. لمن رجع

\* أستاذة في دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت.

إبنها تغشم عليها وفكرها مرتة. سألهما عن امه قالتلو أمك ماتت وهيها مدفونة في حديقة القصر. لمن نامت مع إبنها حبلت وصارت تتوحم...»<sup>٢</sup>

«.. إجه الوزير، وقعدوه عهالفرشة بالخشة. وجوزها قاعد عالحصيرة. وهي قعدت قدامهن تسقي هالملفوفات. وإلأ هي غصبن عنها ضرطت. قالت ييسي، يا ريتني مشحرة، أخرى قدام الوزير. يا أرض أنشقي وابلعيني...»<sup>٣</sup>

«... أخذ الختيارة وروحها معه. مفيش غير راسه وراس مرتة. جابو الأكل وضحكو ولعبو وما شاء الله عليهم. بعد ما خلصوا، وللأ جاب ضمة هالقضبان هالقددة، وعلى مرتة، بالله وين الجنب اللي بيوجعك... ليش هيك يا ستي، بدها الختيارة تتدخل. قلها بتعريفش شو ذنبها، حيدي هيك. ظل يقتل فيها تكسر ضمة القضبان. بعد ما راح سالتها الختيارة ولك يا خايه شو مساوية.. شو مذنبه. قالتلها: لا مذنبه ولا على بالي، قال ليش لا بحبل ولا بجيب...»<sup>٤</sup>

إنَّ أيَّ راوٍ للقصص يستعمل هذه النصوص بحرفيتها اليوم، سيمنع دون شك من رواية القصص في أية مؤسسة من المؤسسات التي تعنى بالأطفال. سواء أكانت مدارس، نواد، مؤسسات ثقافية أو اجتماعية. ويعتبر خارجاً عن النص والقانون والذوق العام على أحسن الفروض، وخارجاً عن العادات والتقاليد والعرف والدين على أسوأها. مع أن هذه الروايات كانت تروى في القرى بشكل مباشر وبنصها الحرفي وباللغة العامية دون أن تشكل خروجاً عن النص والعرف والقانون.. الخ. ودون أن يتهم الراوي بأنه عنصري أو ضد المرأة وانه يفسد الذوق العام، أو ما يسمى في الغرب «politically incorrect».

إن من مهام الأنثوغرافيا بما فيها الفولكلور كما يرى شوقي عبد الحكيم في موسوعته عن الفولكلور والأساطير العربية «جمع المعلومات والمأثورات المتوارثة بما يمكن تزامنه من الدراسات التاريخية في جدلية تواجد العلاقة الحميمة بين البناء الاجتماعي وعلم ما قبل التاريخ والآثار، بالإضافة إلى بقية الميادين والأنبية ومنها أبنية الاتصال من قرابة وتنظيم عشائري وأنماط الزواج والتربية، اللغة وكذا المعتقدات والمنتجات الطقسية الروحية، والدينية..»<sup>٥</sup>

إن القصة الشعبية الفولكلورية حسب تعريف الدكتور شريف كناعنة «هي أكثر أنواع الفولكلور نقلاً لأنماط التفكير. وتنقل طرق التفكير المشتركة لمجتمع ما من جيل إلى جيل»<sup>٦</sup> حيث أنها تعكس الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعتقدات التي كانت سائدة فترة رواية القصة. واعتماداً على هذا التعريف، ظهرت وجهة نظر تقول أنه يجب المحافظة على الرواية الفولكلورية بشكلها ونصها الحرفيين لأنها تعكس ديناميكية تطور مجتمع ما لفترة زمنية معينة، وأنه بالتالي يجب أن يترك لها المجال لأن تتطور تلقائياً مع تطور المجتمع دون أي تغيير في معالمها أو إقحام ما هو جديد ضمن نص مكتوب، وأن تبقى بحرفيتها ولغتها

الدارجة لأن اللغة أيضا هي جزء من التعبير عن المرحلة من حيث المفردات واستعمالاتها، الخ.. وهنا أجد من الضرورة الإشارة إلى بعض الإشكاليات التي تثيرها وجهات النظر هذه.

أولاً: إن الغالبية العظمى من القصص الشعبية الفولكلورية لم تكن أساساً للأطفال. فالراوي الذي كان يقص رواياته في ساحة القرية أو في المضافة كان يقص الحكايات المتداولة الأسطورية والتقليدية، مثل أبو زيد الهلالي.. عنتره.. سيف بن ذي يزن.. مصحوباً في الغالب بعزف على الربابة، ولم تكن بالأساس موجهة للأطفال بل لجموع الرجال. ثم الروايات التي كانت تروىها النساء في بيوتهن والتي كان يستمع إليها الأطفال بالرغم من كونها ليست موجهة لهم». روت المرأة حكاياتها بصراحة وبرمزية، فالرمزية عبّرت بها عن مشاعرها التي لا تستطيع البوح بها، وعن صراعات نفسية تتصارع معها سواء أكان ذلك عن جهل أو عن معرفة...»<sup>٧</sup>

ثانياً: إن كل راوٍ أو راوية كان يضيف للرواية حين يرويها جزءاً من نفسه، ويستعمل اللغة والمفردات التي تعكس وضعه الاجتماعي والثقافي. وكان الراوي يضيف عليها أو ينتقص منها حسب ما كان يرى وقت رواية القصة. وبالتالي لا نستطيع القول بأن هناك رواية أصلية، حيث تكتسب الرواية كل مرة جزءاً من روح ومشاعر ومفردات الراوي.

ثالثاً: قد تتغير الأسماء أو الأحداث أو النهايات في الرواية تبعاً للمنطقة التي تروى فيها، مثلاً قصة جبينه في بعض المناطق تسمى زينة الطول في مناطق أخرى، أو قصة أولها كذب وآخرها كذب كانت تروى بحذف أو إضافة من منطقة إلى أخرى. فأنا شخصياً سمعت القصة عدة مرات بقوالب مختلفة كان آخرها على لسان إحدى الراويات الفلسطينيات المقيمات في لندن، وفيها تحول بطل القصة من كونه ذكراً ليصبح أنثى، وقد يكون هذا التعديل ناجماً عن محاولة التماشي مع الأفكار العصرية حول المرأة.

ومؤخراً وبالتعاون مع مؤسسة تامر ووزارة التربية والتعليم تمّ إخراج القصة بشكل حديث لتوزيعها على المدارس، طلبت وزارة التربية والتعليم مني إدخال بعض التعديلات «لتليق» بمفاهيم التربية الحديثة، الأمر الذي اقتضى كتابتها باللغة الفصحى بدلا عن اللهجة العامية، إضافة إلى تغيير اسمها إلى «قصة أولها خيال وآخرها خيال» على اعتبار أن العنوان الأصلي غير مناسب تربوياً.

رابعاً: إن الكثير من القصص الشعبية قد تكون نقلت وتناقلت من حضارة وثقافة أخرى وأعيد صياغتها وطريقة سردها ومفرداتها بشكل يتناسب مع المجتمع الذي تبناها، وحاجاته وظروفه. وهكذا يحق لكل شعب أن يعتبرها من تراثه وملكيته وأن يتداولها كجزء من تاريخه وثقافته.

فظاهرة ما يسمى بالتناص «intertextuality» معروفة في الأدب الشعبي بشكل عام ولها التناص حضور في الأدب الشعبي، فالحكايات الشعبية عرفت التناص حيث تداخلت نصوص

مختلفة مع أحداث هذه الحكايات.. وهذا يؤكد نظرية التكرارية التابعة لديريدا والتي تلغي الحدود بين النصوص المختلفة وتقوم على مبدأ الاقتباس وتداخل النصوص..<sup>٨</sup>

ونجد في كثير من القصص الشعبي الفلسطيني إما نصاً مطابقاً أو مرادفاً في قصص أخرى متداولة لدى شعوب أخرى، فمثلاً حكاية وديعة التي طردتها زوجة أبيها من بيتها ولجأت إلى كهف وجدت فيه سبعة شبان اعتنوا بها وساعدوها،<sup>٩</sup> تتشابه إلى حد كبير مع قصة بيضاء الثلج، أو سنو وايت. وقصة الرجل الذي تزوج أمه<sup>١٠</sup> تشبه إلى حد كبير قصة أوديب المعروفة ل سوفوكليس.

فالقصة الفولكلورية الفلسطينية المروية في الوقت الحاضر والتي أخذت منها بعض الاقتباسات في هذه الدراسة، وحسب آخر رواية وردت لنا من الرواة، هذه القصص تعود إلى أكثر من خمسين عاماً إلى الوراء، فهي تعكس بمضمونها ومفرداتها مرحلة ما قبل بدايات القرن العشرين وهي امتداد للفترة العثمانية إن لم نقل أقدم من ذلك. والواقع أن القصة الفولكلورية الفلسطينية حسب التعريف السابق لم تنجح في عكس التغيرات الدراماتيكية التي مرّ بها المجتمع الفلسطيني منذ بدايات القرن العشرين. فمثلاً في الخمس وأربعين رواية المدونة في كتاب «قول يا طير» والذي نقل الروايات حرفياً من الرواة، لم تتطرق أي منها إلى التغييرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مرّت بالمجتمع الفلسطيني والتي أحدثت تغييراً جذرياً في بنيتها منذ بداية القرن العشرين.. الثورة العربية الكبرى.. نهاية الحكم العثماني.. الانتداب البريطاني... الصراع مع الحركة الصهيونية.. الشتات... الخ

وهذا يدفعني لإثارة بعض الأسئلة حول علاقة القصة الفولكلورية الفلسطينية وطبيعة المرحلة الزمنية وعجزها عن التطور بما يتناسب والتطورات في المجتمع.

السؤال الأول: هل إن تطور المجتمع الفلسطيني في السنوات الخمسين الفائتة أدى إلى اختفاء رواية القصة الفولكلورية مع ظهور الراديو والتلفزيون والكمبيوتر وغيرها من وسائل الترفيه البديلة، أم أن تحول المجتمع الفلسطيني إلى مجتمع متعلم لم يبق حيزاً للقصة الفولكلورية أن تروى وبالتالي أن تتطور تلقائياً، أم أن القصة الشعبية الفولكلورية بشكلها وتعبيرها الأصلي لم تعد تعبر عن حاجات المجتمع الحالي بمفاهيمه واصطلاحاته، وحتى خياله.

السؤال الثاني: هل إن الشتات والظروف السياسية التي مر بها المجتمع الفلسطيني حيث بات الناس يؤرخون الأحداث الخاصة بهم والعامّة بإسنادها إلى تواريخ «ما قبل النكبة» وما بعد النكبة»، وهل التقطع في التواصل الاجتماعي والسياق التاريخي أدى إلى عدم تطور القصة الفولكلورية وأصبحت القصة بحالة «فريز»، وحدث لها «فريز» عند آخر رواية وآخر مكان رويت به (ما قبل النكبة)، تماماً كما حدث لصورة فلسطين في أذهان اللاجئين حيث بقيت صورة

فلسطين وقراها في ذاكرتهم كما تركوها وكما رأوها آخر مرة، وظلّوا يتناقلونها ويسترجعونها على هذا الشكل. لكن إذا قبلنا جدلاً أن هذا الافتراض صحيح، لماذا واصلت الأغنية الفولكلورية تطورها واستطاعت أن تواكب التطورات السياسية وتعبّر عنها. فمثلاً في أغاني الأعراس، أدخلت مفردات جديدة مثل الاحتلال والحواجز .. الخ، وكيف استطاعت الدبكة أن تستوعب هذه التغييرات وتزواج معها ... فإلى جانب دبكة الشمالية التقليدية ودبكة الطيارة، هناك دبكة التاكسي.

واستطاع الثوب الفلسطيني التقليدي أن يتطور حيث تغيرت أشكال الموتيفات المطرزة حسب المراحل ليصبح لدينا الآن ثوب ثورة ال ٣٦ الذي تضمن تطريزاً لخيول .. وثوب الانتفاضة الأولى الذي حمل في طياته خريطة فلسطين التاريخية وصورة بندقية.

الأمثال الشعبية هي الأخرى تمكنت من التعبير عن الحالة السياسية مثل « يا أم حسين أنت بين والعرب وبين»، حيث جاء رداً على استغاثة أم حسين خلال الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، والتي ظلّت تستغيث بالعرب إلى أن استشهدت برصاص الاسرائيليين...

أما النكتة فهي أكثر أنواع الفولكلور مواكبة للتطورات أولاً باول حتى آخر لحظة، فنجد نكاتاً متداولة بين الناس حول حرب العراق .. وجدار الفصل العنصري، وغيرها.

إذن لماذا عجزت القصة الفولكلورية عن التطور؟ هل هي أضيق من أن تتسع لهذا الكمّ من التجديد؟ وهذا يقودنا إلى التساؤل الثالث:

هل القصة الفولكلورية عاجزة عن التعبير عن المرحلة لأننا لا نزال نعيشها؟ وهل سنرى مستقبلاً قصصاً فولكلورية تعبّر عن الواقع الذي نعيشه الآن؟ إذا ما تفاءلنا وافترضنا أن هذا التوقع صحيح، هل يحق لنا أن نسمي الروايات الشفوية حول ثورة ١٩٣٦ أو هجرة ١٩٤٨ أو الانتفاضة الأولى قصصاً فولكلورية؟

إن التطور والتغيير في المجتمع الفلسطيني قدّم تعبيرات جديدة ومختلفة وأشكالاً حديثة تعكس المرحلة التي نمرّ بها. هل يمكننا اعتبار التاريخ الشفوي والرواية الشفوية حول المراحل التي مرّ بها الشعب الفلسطيني شكلاً أكثر جدّة وحادثة؟ هل هو الرواية الفولكلورية التي نتوقع تطورها تلقائياً مع تطوّر المجتمع.

لا أقصد من كل هذه الأسئلة أن أقلل من قيمة الحكاية الفولكلورية الفلسطينية باعتبارها أكثر أنواع الفولكلور نقلاً لأنماط التفكير وطرق التفكير المشتركة لمجتمع ما. بل أؤكد أنها بشكلها المعروف قد عبّرت فعلاً وبكل دقة عن مرحلة زمنية معينة، لكن ليس عن المائة سنة الفائتة. فهي تعتبر إذاً قطعاً متحفية محتظة بزمانها ومكانها ومفرداتها وتعبيرها عن مرحلتها. إن الرواية الفولكلورية

الفلسطينية بنصها وشكلها التاريخيين في طريقها إلى الاختفاء، وقد تنتهي ويطويها النسيان مع رحيل آخر الرواة الأحياء، ولتجنب هذا المصير المؤلم وهذه الخسارة الثقافية أرى ضرورة لما يلي:

تدوين الروايات المحكية بشكلها وطابعها ونصّها الحرفي وبهذا تحفظ للمستقبل والأجيال القادمة كقطعة من تاريخ فلسطين في مرحلة من المراحل. وهذا لا يمنع تدوين الروايات مع إدخال بعض التعديلات عليها - إلى جانب الشكل الأصلي - لتتناسب مع متطلبات ونمط تفكير جيل اليوم، مع الحفاظ على روحها الأصلية وطابعها الفلسطيني الخاص، وهكذا نضمن استمراريتها وبقائها حية ومتداولة.

كما ينبغي قبول القصص الجديدة التي تعبر عن روح العصر ومكتوبة بأسلوب الخريفية الفولكلورية كنوع جديد محدث من الفولكلور. فالحكايات الفولكلورية أصلاً هي من تأليف أحد ما بخيال خصب وجامع جاءت معبرة عن مرحلة زمنية معينة.

ولتحويل الأفكار السابقة إلى حقيقة على الأرض لا بد من التركيز على أهمية التوثيق المكتوب للحكايات الشعبية - بأشكالها المتعددة - وإخراجها بأشكال جميلة وبأسعار في متناول الجميع لتمكين من منافسة وسائل الترفيه العديدة المتاحة في هذا العصر.

## وهي خُرْفيتي إلكو طرحتها، والمرّة الجاي عليكو أختها

### الهوامش

<sup>١</sup> مهوي، إبراهيم: قصة الشاطر حسن. كتاب قول يا طير، كناعنة، شريف، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت - ٢٠٠١، ص ١٧٥

<sup>٢</sup> قصة اللي تجوزت ابنها. قول يا طير. ص ٦٩

<sup>٣</sup> قصة الغني والفقير. قول يا طير. ص ٢٧١

<sup>٤</sup> قصة أم السبع خمائر. قول يا طير ص ١٨٧

<sup>٥</sup> عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفولكلور والأساطير العربية. مكتبة مدبولي - القاهرة ND

<sup>٦</sup> محاضرة ألقاها الدكتور شريف كناعنة. مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي - رام الله. اكتوبر ٢٠٠٣

<sup>٧</sup> بدارنة، كاملة: طار الطير. دراستان في الحكاية الشعبية الفلسطينية. مؤسسة الأسوار - عكا. ٢٠٠٢. ص ٧.

<sup>٨</sup> المصدر السابق. ص ٨.

<sup>٩</sup> قصة وديعة. طار الطير.

<sup>١٠</sup> اللي تجوزت ابنها. قول يا طير



## نوح ابراهيم - الشاهد والشهيد

سميح شبيب\*

لم يحظ شاعر شعبي في فلسطين، بما حظي به نوح ابراهيم من شهرة وشعبية. غنى نوح بالعامية، وكان بحق شاعر السواد الأعظم. غنى للناس وللثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ في الجبال والأغوار، وللفلاحين في الكروم والبساتين والبيادر. كان قريباً من الناس، معبراً عما يدور في اذهانهم ونفوسهم. لم يكن نوح ابراهيم شاعراً نخبياً، ولا شاعر مناسبات اجتماعية او موسمية. أثر الكتابة باللغة العامية واللهجة الفلسطينية، محرضاً ومبشراً بالثورة، ومشاركاً فاعلاً فيها، ولعل في ذلك ما أغنى مصداقيته التي وصلت حد الاستشهاد، وبذلك كان نوح ابراهيم شاهداً وشهيداً في آن معاً.

ولد نوح في حيفا في العام ١٩١٣، في حي وادي النسناس<sup>(١)</sup>، وعاش في كنف أسرته الفقيرة نسبياً. ذلك ان والده استشهد وهو لا يزال طفلاً، ولم يتمكن من متابعة دراسته، وترك مقاعد الدراسة وهو لا يزال في الصف الخامس الابتدائي، ليعمل عامل طباعة، حيث

\* أستاذ محاضر في دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت.

استهوتها الكلمة ونشرها وفنون طباعتها، فتردد على اندية الشباب والكشافة والعمال وقام بزيارات لعدة اقطار عربية كان منها مصر ولبنان وسوريا وفيها القى خطاباً نارياً ضد الانتداب والصهيونية.

يؤكد مجايو نوح ابراهيم، التحاقه بحركة عز الدين القسام، بل ان لقبه كان «تلميذ القسام»، وكان نوح يعتز بهذا اللقب ايما اعتزاز. وعند استشهاد القسام (١٩/١١/١٩٣٥) انشد نوح قصيدة، كانت بعنوان «يخسارة يا عز الدين»،<sup>(٢)</sup> وكانت على كل لسان آنذاك، ومن ضمن جاء فيها:

|                      |                         |
|----------------------|-------------------------|
| عز الدين يا خسارتك   | رُحِت فِدَا أُمَّتِكَ   |
| مين بينكر شهامتك     | يا شهيد فلسطين          |
| عز الدين يا مرحوم    | موتك درس للعُمووم       |
| آه لو كنت تـدوم      | يا رئيس المجاهدين       |
| ضحيت بروحك ومالك     | لأجل استقلال بلادك      |
| العَدُو لما جالك     | قاومتو بعزم متين        |
| أسست عُصبة للجهاد    | حتى تحرر البلاد         |
| غايته نصر أو استشهاد | جمعتُ رجال غيورين       |
| جمعت رجال من الملاح  | من مالك شريت سلاح       |
| وقلت هيا للكِفاح     | لنصر الوطن والدين       |
| جمعت نخبة رجال       | وكننت معقد الآمال       |
| لكن الغدرِ يا خال    | لعب دورو بالتمكين       |
| لعبت الخيانة لُعبة   | وقامت وقعَت النكبة      |
| وسال الدم للركبة     | وما كُنْت تسَلِّم وتلين |
| كُنْت تصيح الله اكبر | كالأسد الغُضْنَفِر      |
| لكن حُكم المقدر      | مشيئة رَب العالمين      |

اعتقل نوح في اوائل شباط ١٩٣٧، وأودع سجن عكا لفترة خمسة شهور، كانت فرصة ذهبية له لكتابة القصائد الشعبية وانشادها للمعتقلين، وكان ابرزها قصيدة «المستر ببلي» نشيد المعتقلين والمعتقات زمن الانتداب البريطاني. وكانت القصيدة بعنوان: يا جناب المستر ببلي، وورد فيها:

|                      |                       |
|----------------------|-----------------------|
| وكيل اللواء الشمالي  | ي جناب المستر ببلي    |
| كان بدها عدالي...    | أحكامك شديدة كثير     |
| كلها عجيبة وخيالات   | على شوية رابورات      |
| والنفي والكفالات     | صرت تُحكّم بالإبعاد   |
| وشيء عضو عصابات      | شيء عضو إرهابي        |
| ما إلها جنس الاساسات | وكلها والله تركيبه    |
| وفي أحكام شديدة      | تحاكمنا بموضة جديدة   |
| وشيء بتتهم عديده     | شيء بتهريب السلاح     |
| يبين براءتو الأكيدة  | منعتوا الواحد يحكي    |
| بيتظلم من هالمكيدة   | كل منا كا بيشكي       |
| والصلاة جُرم كمان    | صارت قراءة القرآن     |
| أحكامو زي السدان     | قانون منع الجرائم...  |
| ومن طبريا ومن بيسان  | من حيفا جبّو والناصره |
| علما شيوخ وشبان      | صفد إجزم والطيرة      |

يجناب المستر ببلي

|                          |                     |
|--------------------------|---------------------|
| حيث سُفتو الأمر خطير     | أدركتوها بالأخير    |
| وإنا مظلومين كثير        | ولما عرفتوا براءتنا |
| وتأخذوا المسألة بالتفكير | منتأمل ما تعيدوها   |
| وما بلزم الكم تفسير      | وهالسمعة تحفظوها    |

يجناب المستر ببلي

خرج نوح من السجن، ليلتحق بصفوف المجاهدين في الثورة، منشداً ومقاتلاً وناشراً لقصائده الشعبية، الواسعة الانتشار لدرجة اقدمت فيها، السلطات البريطانية، وعن طريق مراقب المطبوعات البريطاني في فلسطين، أوين تويدي، على إصدار قرار خاص، بنوح ابراهيم وقصائده، وكان نصه التالي:

«استناداً الى الصلاحية المخولة لي كمراقب للمطبوعات، وبمقتضى نظام الطوارئ، فأنا اوين ديديت تويدي، أحذر طبع او نشر النشرة المحتوية على مجموعة اشعار نوح ابراهيم المطبوعة خارج فلسطين، والمعروفة باسم «مجموعة أناشيد نوح ابراهيم» ومصادرة نسخ تلك المطبوعة او المنشورة او المستورة خلافاً لهذا الأمر»<sup>(٣)</sup>

سقط نوح شهيداً، في معركة غير متكافئة مع القوات البريطانية جرت بتاريخ ١٨/١٠/١٩٣٨، على سفوح جبل الصنيعة، المتاخم لقرية طمرة، واستشهد معه ثلاثة ثوار هم: محمد خضر قبلاوي (٢٣ عاماً)، وعز الدين خلايلة من مجد الكروم، وثائر سوري وكان لقبه أبو رعد.

## الاطار التاريخي، الاجتماعي والسياسي، لمرحلة نوح ابراهيم

شكل الفلاحون غالبية السكان الفلسطينيين، فقد بلغ عدد القاطنين في الريف الفلسطيني سنة ١٩٢٢، نحو ٦٩٣.٤٧٧ نسمة، كانوا يشكلون ٧٠٪ من مجموع السكان.<sup>(٤)</sup>

ويورد جون هوب سمبسون في تقريره انه «لا تكاد توجد قرية عربية غير مغرقة في الديون، الفلاحون مثقلون بالضرائب، لدرجة يتعذر معها دفع ضريبة العشر»<sup>(٥)</sup>

ويضيف تقرير رسمي آخر، ان دخل العائلة الفلاحية، المكونة من ستة اشخاص، كان يراوح ما بين ٢٠-٣٠ جنيهاً شهرياً، لكن ما تحتاج اليه لشراء ضرورات المعيشة يبلغ ٢٦ جنيهاً، فاذا عرفنا ان الفلاح يدفع نحو ستة جنيهاً ضرائب مباشرة وغير مباشرة وثمانية جنيهاً ديوناً فان ما يتبقى له لا يكفي لسد الرمق»<sup>(٦)</sup>

وخلال تلك الفترة، ورث الفلسطينيون تدني المستوى التعليمي من السلطنة العثمانية، اذ كان التعليم مقتصرأ على بعض الكتابيب. وحتى العام ١٩١٤، لم يزد عدد مدارس فلسطين عن ٩٥ مدرسة ابتدائية، و ٣ مدارس رشيدية ضمت ٢٣٤ معلماً و ٨٢٢٨ تلميذاً، منهم ١٤٨٠ من الاناث.<sup>(٧)</sup>

وعند دخول الجيوش البريطانية فلسطين خضعت المدارس والتعليم للحكم العسكري من عام ١٩١٧ الى ١٩٢٠. وفي هذا الوقت اتت بعثة من المدرسين الانجليز في مصر لاقامة ادارة

معارف فلسطين. وخصصت الادارة العسكرية للتعليم عام ١٩١٩ مبلغ ٥٣.٠٠٠ جنيه مصري ثم ارتفع هذا الرقم الى ٧٨.٠٠٠ جنيه مصري عام ١٩٢٠-١٩٢١. وبعد انشاء الحكم المدني قام في فلسطين نظامان للتعليم: النظام العربي والنظام اليهودي، واستقل اليهود بنظامهم استقلالاً تاماً، وأنحصر دور الحكومة في النظام العربي<sup>(٨)</sup> وبقيت نسب التعليم متدنية، طوال فترة الانتداب، خاصة في القرى وفي صفوف الفلاحين، وفي عامي ١٩٣٥-١٩٣٦، بلغ عدد المدارس في فلسطين ٣٥٠ مدرسة وعدد المدرسين ١٠٥٥، وعدد الطلاب العام ٤٢.٧٦٥ منهم ٩.٧١٢ من البنات.<sup>(٩)</sup>

وفيما اذا أردنا تحديد الفترة الزمنية لعطاء نوح ابراهيم الشعري، لوجدناها تتحدد في فترة لا تتعدى أربعة سنوات فقط، لمع نجمه خلالها، واكتسب شهرة واسعة لا ينافسه بها احد، وهذه السنوات من عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٣٨، عام استشهاده. ولعله من نافلة القول، أن ما عايشه نوح ابراهيم خلال طفولته وأوائل شبابه، قبل العام ١٩٣٥ شكل الخلفية التاريخية لتكوينه النظري وأدائه العملي. شهدت طفولته دخول الجيش الانكليزي الى فلسطين، وبدايات النشاطات الصهيونية في الجليل، وهبة ١٩٢٠ و ١٩٢٢، وما شهدته فلسطين من نشاطات سياسية، اعترافها الاضطراب والتشردم، كما وشهد النشاطات الأولى لعز الدين القسام، لتنظيم خلايا مسلحة في مسجد الاستقلال في حيفا. وخلال تلك المرحلة، كان لاعدام الشهداء الثلاثة عطا الزير وفؤاد حجازي ومحمد جمجوم في ١٧/٦/١٩٣٠ اثره البالغ في نفوس الجماهير الفلسطينية، وكذلك اظهار اللجنة التنفيذية العربية بزعامة موسى كاظم الحسيني بمظهر الضعف؛ الأمر الذي اسهم بتوجيه الانظار نحو مقاومة القسام، لكن امره انكشف قبل اتمام الاستعدادات اللازمة، ما ادى الى استشهاده، وبعض رفاقه في احراش يعبد ١٩/١١/١٩٣٥ حيث رثاه نوح ابراهيم، وبعدها بدأت اشعار نوح تتالى لتتناول قضايا سياسية واجتماعية شتى.

## الأسلوب الأدبي والاداء الشعري

اختار نوح نمطين بارزين من انماط الزجل المتداولة في فلسطين، وهما المحاوراة والمربع، ولم يلجأ الى الأساليب الأخرى وأبرزها العتابا والمبجنا والمثمن. ومن خلال هذه النمطية، تمكن من ان يروي ما يرغب في رواياته، وان يحاول بث آرائه وافكاره عبر المحاورات. ولعل ابرز محاوراته، محاوراة العربي والصهيوني<sup>(١٠)</sup> ونظراً لأهمية ما تعكسه هذه المحاوراة، من أداء شعري ونظري (سيتم التطرق اليه)، فسيتم ايرادها كاملة:

العربي يا ناس خليكم شاهدين وشوفوا الحق على مين  
عصبة الأمم شوفي شو صاير بفلسطين  
الصهيوني وحياتي وحياء شالوم أنا حقي صاير مهضوم  
يا مصيبتى يا صباح الشوم راحت منى فلسطين  
العربي أنا العربي يا عيوني عند الموت ارموني  
بمحي اسم الصهيوني لاحمي بلادي فلسطين

### من كيد المستعمرين

الصهيوني أنا الصهيوني المعروف وأمري في الدنيا مكشوف  
رسالي مكر وبلوف ولازم أملك فلسطين  
ولازم املك فلسطين

العربي بتملكها بكرا بكيير لما تشوف هم وتعتير  
وتقابل منكر ونكيير يوم القيامة يا مسكين  
حتى تملك فلسطين

الصهيوني لا تنسى كثر الأموال والغدر والاحتيال  
بملك فيها رقاب رجال بفعل فعل الشياطين  
ولازم املك فلسطين

العربي افعل فعلك يا مغرور انت في الدنيا مشهور  
أنا النسري يا زرزور وانت بتهرب من سكين  
وبدك تملك فلسطين

الصهيوني بهرب انا ما بحارب وبناتي عني تجاوب  
فيهن ما برجع خايب بكسب بالمية تسعين  
ولازم املك فلسطين

العربي أخ تفو عهيك رجال بفتخروا بها لاقوال  
خابت منك الأموال وقعتك قطران وطين  
لازم ترحل يا لعين

الصهيوني خبيبي اسمع كلامي مهما شفت قدامي  
أنا بدي الوطن القومي علشان صهيوني فلسطين

ولازم املك فلسطين

العربي والله عمرك ما بتشوف لازم تضلك منتوف  
عامل سبع يا خروف غير تشوف غراب البين

اذا بقيت بفلسطين

الصهيوني كل الدنيا زهقتني ومن بلادها رفضتني  
وانت كمان لاحقني لتجرمني من فلسطين

بلاد اجدادي من سنين

العربي حاجي تخبص بالكلام كنك غارق بالمنام  
فلسطين مهد الاسلام والمسيح والمرسلين

فين رايح يا مسكين

الصهيوني مش ممكن ارحل عنها ولازم غايتي انفذها  
يا بكسب يا بخسرهما ما برحل من فلسطين

ولازم املك فلسطين

العربي لازم ترحل

الصهيوني ما برحل

العربي بعدك واقف

الصهيوني أنا مش خايف

العربي وقف شوف آخرتك

الصهيوني اعمل انت اللي بدك

العربي، بم بم بم

الصهيوني: آه يا خسارتي ضاع المال والرسمال

وراحت مني فلسطين

أما فيما يتعلق بالمرجع، وهو ما يطغى على قصائد نوح ابراهيم، فتتكون من اربع شطرات، ثلاثة منها على نفس الروي وشطره ذات روي مختلف. في المرة الأولى يلتزم الشاعر بحرف معين، وفي المرة الثانية بحرف آخر على ان يكون هذا الحرف مشتركاً للشطرات الثلاث الاولى ويكون المربع متبوعاً بلازمة «يا حلالي ويا مالي»، وغالباً ما تكون اوزانه سريعة الايقاع. ومثال ذلك ما انشده نوح، بعد تأسيس اللجنة العربية العليا، مثال على ذلك:

قولوا معي يا اخوان (١)

الله ينصر هالأوطان (٢)

في هاللجنة العلية (٣)

كل واحد منا فرحان (٤)

يبدأ الشاعر او الزجال بالشرطة الثالثة ذات الروي كبداية للفقرة التي تلي مع الالتزام بقافية المطلع السابق هكذا:

في هاللجنة العلية

فخر الأمة العربية

كارهة الصهيونية

رمز الوحدة والايمان

ثم يبدأ الشاعر او الزجال بصياغة شطرات اخرى لكنه في هذه المرة لا يلتزم بالشرطة الثالثة كما في السابق الا انه يلتزم بروي واحد للشطرات الثلاث الاولى، وفي الشرطة الرابعة يلتزم بروي نظيرتها السابقة:

لجنتنا العليا المشهورة

اللي جهودها مشكورة

واللي شعارها مشهورة

تحمي العرض والأوطان.

تناولت قصائد نوح ابراهيم مناسبات شتى، كان من ابرزها قصيدته الموجهة الى الليفتاننت جنرال جون دل، القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين وشرق الاردن، حيث تم تعيينه بتاريخ ١٥/٩/١٩٣٦، لتنفيذ اجراءات مشددة ضد الفلسطينيين، بعد بدء العصيان المدني والامتناع عن دفع الضرائب.



عُرف عن «دل» تقربه من العرب، ومحاولة التأثير عليهم بوسائل مختلفة، للوصول الى ما يريده سلمياً، وكان من ابرزه، إحداث التباعد ما بين المشايخ والمخاتير والوجهاء وقادة الثورة. تقول القصيدة:

|                      |                       |
|----------------------|-----------------------|
| يا حضرة القائد «دل»  | لا تظن الأمة بتملُّ   |
| لكن أنت سايرها       | يمكن على يدك بتحل     |
| ما دمت رجل خبير      | وقائد عسكري خطير      |
| وقضيتنا كلها فهمتها  | ما بلزم الك تفسير     |
| فهم لندن باللي صار   | واللي بعدو راح يصير   |
| العرب أمة احرار      | صداقتها لازمتمكو كثير |
| دبرها يا مستر «دل»   | يمكن على يدك بتحل     |
| إن كنت عاوز يا جنرال | بالقوة تغير هالحال    |
| لازم تعتقد أكيد      | طلبك صعب من المحال    |
| لكن خدها بالحكمة     | واعطينا الثمن يا خال  |
| ونفذ شروط الأمة      | من حرية واستقلال      |
| دبرها يا مستر «دل»   | يمكن على يدك بتحل     |
| جيت فلسطين الحرة     | حتى تقمع الثورة       |
| ولما درست الحالة     | لقيت المسالة خِطرة    |
| بدنا نفهم بريطانية   | حتى تكفينا شرها       |
| وتصافي الأمة العربية | بمنع البيع والهجرة    |
| ودبرها يا مستر «دل»  | يمكن على يدك بتحل     |
| ما دمت صاحب السلطة   | حل هالمشكل وهالورطة   |
| ميد يدك صافحننا      | ما تخلي ولا أورطة     |
| ونفذ وعود الشرف      | حتى تمجي هالغلطة      |
| للدولة هذا أشرف      | واحسن مشروع وخطة      |

دبرها يا مستر «دل»

يمكن على يدك بتحل»

وفي ظل الاضراب الكبير، واعلان حالة العصيان المدني، قامت بريطانيا بارسال لجنة ملكية للتحقيق بما سيسود في فلسطين من حالة غليان، وسماع مطالب الفلسطينيين. نظم نوح قصيدة بعنوان «يجناب اللجنة الملكية» جاء فيها:

|                      |                    |
|----------------------|--------------------|
| يجناب اللجنة الملكية | خلي عندك نظرية     |
| بلكي تفضي هالمشكل    | وتحلي هالقضية      |
| بالأول قاطعناكي      | حتى نحفظ شرفنا     |
| رجعنا تعاوننا معاكي  | حيث ملوكننا امرونا |
| ولما نزيهه شُفناكي   | عرضناك قضيتنا      |
| فضي بقى هالمشكل      | وحلي لنا هالقضية   |

#### يجناب اللجنة الملكية

|                       |                      |
|-----------------------|----------------------|
| ياما شُفنا لجان تحقيق | وقلنا منول المطلوب   |
| كثرت يا لورد الخوازيق | اشتغل فينا ضرب الطوب |
| مشينا بقى بطريق       | حتى نوصل للمرغوب     |
| وفضوا بقى هالمشكل     | وحلوا لنا هالقضية    |

#### يجناب اللجنة الملكية

|                    |                   |
|--------------------|-------------------|
| فلسطين قضيتها      | زي الشمس مفهومة   |
| الصهيونية اغتصبتها | وبدها تعمل حكومة  |
| والعرب بدها حقوقها | ومطالبها المهضومة |
| فضي بقى هالمشكل    | وحلي لنا هالقضية  |

#### يجناب اللجنة الملكية

|                        |                    |
|------------------------|--------------------|
| العرب أمة أشـراف       | بكل الدنيا معروفين |
| غير المولى ما بتخاف    | تفدي بروحها فلسطين |
| والأعدا من الشرف إنظاف | ومن الشهامة خالين  |
| فضي بقى هالمشكل        | وحليلنا هالقضية    |

#### يجناب اللجنة الملكية

توصلت اللجنة إلى نتائج محددة، وفي السابع من تموز ١٩٣٧، صدر مشروع تقسيم فلسطين، وهنا نظم نوح ابراهيم قصيدة بعنوان: مشروع تقسيم فلسطين، ورد فيها:

عَمَّ تفتكروا بحل جديد  
أما مشروع التقسيم؟  
سمعنا عزمتمو النية  
تأخذوا القدس وبيت لحم؟  
وتحشروا العرب باميم!!!  
لكن مشروع التقسيم...  
إن شفتوا ورائق مكماهون  
بتلغوا وعد بلفور الزور  
وكل منكم بصبح عليم  
وأما مشروع التقسيم!  
عم تفتكروا بحل جديد  
أما مشروع التقسيم  
تسعطاشر سنة صابرين  
وفلسطين مقدسة...  
خلو ضميركم سليم  
وأما مشروع التقسيم!!  
افتكروا وأعطوا القرار  
بلكي تنحل العقدة  
وندخل في دور التنظيم  
وأما مشروع التقسيم

ما بتنفيذ بالتأكد؟  
مرفوض وفاشل وبعيد  
على طريقة جهنمية  
وحيفا تكون دولية  
والساحل للصهيونية؟؟  
مرفوض وفاشل وبعيد  
للعرب باسم السكسون  
اللي انعطى للصهيون  
باللي كان وراح يكون  
مرفوض وفاشل وبعيد  
ما بتنفيذ بالتأكد  
مرفوض وفاشل وبعيد  
حتى صرنا مهديدين  
من مئات السنين  
وانصفوا هالمظلومين  
مرفوض وفاشل وبعيد  
حيث ملينا الانتظار  
ويخلص دور الاستعمار  
ونصير في بلادنا أحرار  
مرفوض وفاشل وبعيد

اللهم لا تحقق مشروع التقسيم

وعاشت فلسطين

عربية حرة يرفرف عليها العلم العربي المجيد

أولى نوح ابراهيم الوضع الداخلي الفلسطيني، اهتماماً خاصاً؛ تجلّى في العديد من القصائد التي تناولت الصمود والكفاح الشعبي الفلسطيني، ووحدة العطاء الوطني، بغض النظر عن الدين والانتماء، كما لم يفته تمجيد الكفاح النسوي.

عند الاضراب الكبير الذي دام زهاء ستة شهور وبدأ في العشرين من نيسان ١٩٣٦ نظم نوح ابراهيم قصيدة تحية لبحارة يافا، يقول فيها:

|                      |                      |
|----------------------|----------------------|
| تحيى رجال البحرية    | من اسلام ومسيحية     |
| «بحرية يافا البواسل  | أصحاب الهمة العلية»  |
| تحيى بحارة يافا      | رجال النخوة المعروفة |
| أظهروا مدة الاضراب   | شهادة عظيمة موصوفة   |
| وعطلوا كل الأعمال    | واعطوا مثل لحيفا     |
| رفعوا رأس الأمة يخال | ومشيو بأول صفوفه     |

#### تعيش رجال البحرية

|                      |                     |
|----------------------|---------------------|
| في الاضراب ضحوا كثير | واجهوا الامر العسير |
| وكانوا مثل للجميع    | من كبير مع صغير     |
| ست اشهر صبروا علطول  | رفضوا الربح الوفير  |
| والمثل بحكي وبقول    | الشرف عند الفقير    |

#### تعيش رجال البحرية

#### ثلاث مرحات لبحارة يافا البواسل

#### مرحى مرحى مرحى

|                  |                   |
|------------------|-------------------|
| مبداهم الكرامة   | رَسْمالهم الشهامة |
| معروفين بالشجاعة | والبسالة والهمة   |

كما ونظم قصيدة بعنوان، «اما الوطن للجميع» وجاء نظمها، في ظل اجواء حاولت خلالها سلطات الاحتلال، اظهار الامور، وكان هنالك تباينات في الرؤية ما بين المسلمين والمسيحيين بشأن مقاومة الانتداب البريطاني، وجاء فيها:

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| المسلم والمسيحي     | اتحادهم قوي ومنيع    |
| والدين والمذهب لله  | أما الوطن للجميع     |
| * * *               |                      |
| لا تقول مسيحي ومسلم | كُلنا اخوة من فرد دم |
| مهما تحكي وتقدم     | آدم ابونا وحووا الأم |
| وكل واحد يكون فاهم  | اتحادنا قوي ومنيع    |
| والدين والمذهب لله  | أما الوطن للجميع     |

وعبر قصيدة طويلة، بعنوان: قولوا تعيش فلسطين وشهامة المجاهدين، يقوم نوح بايراد قصة يصفها هو «بالعجيبة»، وتدور احداثها عبر معركة جرت ما بين الثوار الفلسطينيين من جهة ووحدة عسكرية بريطانية، ينتصر خلالها الثوار، ويسقط من يسقط من الوحدة البريطانية، ويجرح خلالها، ضابط انكليزي كبير، يقوم الثوار بمعالجته ومن ثم باطلاق سراحه؛ ما يجعل هذا الضابط مؤيداً للثورة والثوار.

تقول هذه القصيدة:

|                      |                      |
|----------------------|----------------------|
| قصة عجيبة يا سامعين  | جرت بحيفا بفلسطين    |
| وراحت مضرب الأمثال   | بشهامة المجاهدين     |
| حوادثها واقعة باثبات | في أيام الاضطرابات   |
| في وقعه من الوقعات   | انتصرت المجاهدين     |
| وانوجد ضابط كبير     | بكتفو جرح خطير       |
| عم يصيح ويستجير      | حملتو المجاهدين      |
| شرفهم خلاهم يداووه   | حتى شفي وطيبووه!     |
| وفي الأخير اعتقوه    | عبرة للمستعمرين      |
| وبحيفا حفلة صدفت     | وفي جبل الكرمل صارت  |
| والصهيون فيها عزمت   | الضباط البريطانيين!! |

|                            |                       |
|----------------------------|-----------------------|
| حسب عادتهم عزموهم          | وجابوا بنات يراقصوهم  |
| وبلشوا يسكروهم             | حتى يكونوا مبسوطين    |
| وصاروا يقولوا لهم يا اخوان | اشربو معنا نخب فلان   |
| ونخب فلان ونخب فلان        | حتى صاروا زهقانيين    |
| والضابط حاضر يُنظر         | من قهرو ما عاد يصبر   |
| صار يزمجر ويهدر            | وتذكر المجاهدين       |
| مسك كاسو بيدو              | ومن وسطو سحب فردو     |
| وصاح فيهم كلكم ردوا        | وقولوا تعيش فلسطين    |
| اشربوا نخب الثوار          | أصحاب الشهامة الأحرار |
| وان خالفتوا بطلق النار     | وبخليكم ملقوحين       |
| عمالكم تعزمونا             | وبناتكم تقدمولنا      |
| بفكركم تلبفونا             | آه منكم يا غشاشين     |
| العرب امة اشراف            | محرومين من الانصاف    |
| وانتو من الشرف انضاف       | ومن الشهامة خالين     |
| وطلع مع رفاقوا من البار    | يهتفوا فلتحيا الثوار  |
| ويقولوا العرب احرار        | والصهيون معروفين      |
| هاذي القصة يا كرام         | افهموها عالتمام       |
| حفظوها للغلام              | ترجموها للغربيين      |

وفي قصيدة تروي قصة أخرى، انشد نوح ابراهيم، قصيدة بعنوان: تحيا المرأة العربية، ورد فيها:

|                    |                  |
|--------------------|------------------|
| اسمعوا لي يا سادات | وخصوصاً يا سيدات |
| قصة شاهدتها بالذات | من امرأة قروية   |

\* \* \*

|  |  |
|--|--|
| قصة عجيبة يا ناس<br>واللي في عنده إحساس    | حوادثها بتترفع الراس<br>يتمعن فيها شوية      |
| *  | *  |
| الثورة الأخيـــــرة<br>بجبال نابلس الشهيرة | وبقرية اسمها (عصيرة)<br>جرت هالقصة التاريخية |
| *  | *  |
| حُرمة كبيرة في البلد<br>زوجها خلف لها ولد  | ما لها معين احد<br>تعزُّه معزه قويـــــة     |
| *  | *  |
| مسكينة وفقيرة حال<br>ولدها وفراشها رسمال   | ما بتملك شي من المال<br>وبعض أساور ذهبية     |
| *  | *  |
| من كُثر حماستها<br>باعت فراشها وسيغتها     | وغيرتها وشهامتها<br>واشترت له بندقية         |
| *  | *  |
| صارت تحته يا أسياد<br>وتحبيب له الاستشهاد  | وتبين له فضل الجهاد<br>وتقول له تشجع يا ابنه |
| *  | *  |
| قدمت لابنها السلاح<br>وتشجع على الرواح     | وصارت تدعي له بالنجاح<br>للمعارك الحربية     |
| *  | *  |
| الشاب طلع للجبال<br>ولما نظر هاالأهوال     | مع الثوار الأبطال<br>انسحب بصورة خفية        |
| *  | *  |
| رجع للقرية يا شباب<br>وحدها تصلي يا أحباب  | نظر بعينه من ثقب الباب<br>وتتلي آيات قرآنية  |
| *  | *  |

|                     |                        |
|---------------------|------------------------|
| وابعد عنا كيد الغرب | وتقول انصرنا يا رب     |
| من اسلام ومسيحية    | لا تخذل أمة العرب      |
| *                   | *                      |
| قال لها ابنها حضرت  | طرق الباب جاؤبت        |
| قصدك تموه علي       | صاحت فيه اخجل كذبت     |
| *                   | *                      |
| تطوع وراح للجهاد    | ابني حُر وابن امجاد    |
| يقدم نفسه ضحية      | حتى ينقذ البلاد        |
| *                   | *                      |
| من الموت لا يخاف    | ابني عربي نسل اشراف    |
| وصاحت صيحة مُضرية   | وبخته بكلام جاف        |
| *                   | *                      |
| وعلى هروبه ندمان    | ابنها اصبح خجلان       |
| بحاله كثير عصبية    | رجع بسرعة يا اخوان     |
| *                   | *                      |
| ما عاد يهاب المدافع | استلم اخطر مواقع       |
| بالصفوف الامامية    | وصار يهاجم ويدافع      |
| *                   | *                      |
| ودافع دفاع الأبطال  | هجم بجرأة واستبسال     |
| بظل الراية العربية  | لحتى استشهد يا خال     |
| *                   | *                      |
| وانتصرت فيها الثوار | انتهت المعركة يا احرار |
| هالشاب يروح ضحية    | وهكذا شاءت الاقدار     |
| *                   | *                      |
| ولوالدته أخبروها    | جثته أحضروها           |
| حسب الأصول المرعية  | صاروا الناس يعزوها     |
| *                   | *                      |



|                      |                       |
|----------------------|-----------------------|
| وقفت معتزة ومسرورة   | والدته الحرة الجسورة  |
| على النساء بالكلية   | وصاحت انا فخورة       |
| *                    | *                     |
| مات واستشهد ابني     | لأجل حرية وطني        |
| حتى اقدمه هدية       | يا ريت الي ولد ثاني   |
| *                    | *                     |
| خصوصاً نساء هالأمة   | اسمعوا يا اهل الهمة   |
| إم النخوة والحمية    | حيوا جميعكم هالحرمة   |
| *                    | *                     |
| لأجل انقاذ وطنها     | هلي نكرت ابنها        |
| هالمبادئ العلية      | تعلموا وخذوا عنها     |
| *                    | *                     |
| لكل اللغات الحية     | وترجموا هالحكاية      |
| تقراها الأمم الغربية | واعملوها رواية        |
| *                    | *                     |
| ضحوا ارواحهم فداء    | اقروا الفاتحة للشهداء |
| وكل امرأة عربية      | وهكذا فلتكن النساء    |

كما وكان نوح ابراهيم، دائم الانشاد والتمجيد بملوك ورؤساء العرب، خاصة الملك غازي الأول، ملك العراق ولعل قصيدة يا ملوك المسلمين، تعبر عن ذلك أيما تعبير ويرد فيها:

|                                |                                       |
|--------------------------------|---------------------------------------|
| شمرؤا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين | مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين |
| يا ما شُهدا راحت وبيوت كتيير   | فلسطين عمّ تتعذب كتيير                |
| وقضية مالها فِكِه وأمرها عسير  | وحالتها والله تبكي والخطر كبير        |
| شمرؤا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين | مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين |
| *                              | *                                     |

مولانا ابن السعود يا حامي البيت  
فهم الغربي الظالم باللي نويست  
مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين

لو شفت الحالة بعينك كنت بكيت  
ونحنا نعرف اخلاصك واللي سويت  
شمروا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين

\* \* \*

مولانا الامام يحيى حميد الدين  
سيوف الاسلام انجالك المشهورين  
مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين

يا مشهور بالغيرة ع المسلمين  
ارفعوا صوتكم العالي للمظلومين  
شمروا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين

\* \* \*

أملنا كبير بمولانا غازي الأول  
وشعب العراق لأجلنا يا ما اتحمل  
مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين

فخر الشباب خليفة البطل فيصل  
وحل القضية على يد رجالو منتأمل  
شمروا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين

\* \* \*

مولانا عميد البيت الهاشمي  
حامي الصخرة والأقصى من هالهجمة  
مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين

عبد الله ابن الحسين ابو الأمة  
يا أمير شرقي الأردن يا بو الهمة  
شمروا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين

\* \* \*

والأقطار العربية راح تنصرنا  
الأردن وسوريا وكل العرب اخوتنا  
مالنا غير الله وانتم يا ملوك المسلمين

وما راح تتأخر عن تأييد قضيتنا  
حتى الهنود قامت تُطلب نصرتنا  
شمروا عن سواعدكم لانقاذ فلسطين

لعل ما ورد في القصائد المختارة، الواردة في هذه الدراسة، ما يكفي للقول بأن اشعار نوح ابراهيم، ورغم شيوعها وانتشارها، فان مضمونها السياسي يمتاز بالتبسيط الشديد، بل وبالسداجة الواضحة؛ أكان في قصائده وأشعاره الموجهة للبريطانيين، وخاصة المستر دل، أو إلى ملوك ورؤساء العرب. ولعله من نافلة القول، ان دل يمثل الأداة التنفيذية العسكرية بين الانتداب البريطاني، المتحالف كامل التحالف مع الحركة الصهيونية، فكيف لنا ان نناشده بحل عادل!!؟

كما وأن زعماء العرب لم يكونوا في وارد الوقوف آلى جانب الثورة، فكيف لنا ان نعتبرهم

حليفنا الوحيد.. ولعل ما ورد في المحاوراة ما بين الصهيوني والعربي ما يكشف عن مدى سذاجة الشاعر، ومدى سطحية فهمه للصهيونية ومشروعها في فلسطين. لكن ذلك لا ينفي شعبية الشاعر نوح ابراهيم، وكذلك الاسباب الكامنة وراء حب الناس له، وترديدهم لاشعاره. لعل تلك الأسباب تتمحور حول النقاط التالية:

- ◆ مصداقية الشاعر، وانخراطه المبكر بصفوف الثورة، كشاعر ومحرض ومقاتل في آن معاً.
- ◆ بساطة اللغة ومباشرتها؛ الأمر الذي لاقى قبولاً في الاوساط الفلاحية، وهي الأوساط الواسعة في المجتمع الفلسطيني.
- ◆ اللجوء إلى اسلوب القصص والمحاورات كأسلوب قريب من نفوس وعقول الجماهير.
- ◆ لجوء الشاعر، إلى تسجيل أهزيجه وأشعاره، عبر اسطوانات واذاعتها في بعض الاذاعات العربية، مستفيداً بذلك من بعض خبراته التقنية، من خلال عمله في احدى مطابع حيفا، ابان طفولته وأوائل شبابه.
- ◆ استشهاد الشاعر، وهو في عمر الخمس وعشرون ربيعاً، وبذلك بلغت مصداقيته أوجها، وهل بعد الاستشهاد مصداقية!!؟

شكلت اشعار وأهزيج نوح ابراهيم، عنصراً ملهماً شفوياً من عناصر الثورة الفلسطينية ١٩٣٦-١٩٣٩، كما وشكل استشهاده قدوة يحتذى بها، وقد أحسن المجلس المحلي في قرية طمرة، بتشكيل لجنة لاهياء ذكرى نوح ابراهيم واقامة نصب تذكاري له في العام ١٩٨٦.

## الهوامش

- (١) الموسوعة الفلسطينية، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤، ص ٢٢٩.
- (٢) هذه القصيدة، والقصائد الأخرى الواردة في الدراسة، مأخوذة من ثلاثة دواوين لنوح ابراهيم، وهي من مقتنيات المكتبة القومية في القدس، التابعة للجامعة العبرية.
- (٣) يوميات زعيتر، أكرم، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ٥٠.
- (٤) Esco Foundation for Palestine: A study of Jewish, Arab and British Politics, New Haren Yale University Press, 1949, vol, 2, p1 & 8
- (٥) سمبسون، جون هوب، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران، القدس: مطبعة دار الأيتام الاسلامية، ١٩٣٢، ص ٩٦.

- (٦) تقرير جوستون كروسي، ص ٤٢، أورده عادل الجادر، أثار قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية، ص ٣٧١.
- (٧) الحوت، بيان نويهض، فلسطين، القضية الشعب الحضارة، بيروت: دار الاستقلال، ١٩٩١، ص ٤١٤.
- (٨) الموسوعة الفلسطينية، بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ١٩٩٠، ص ٣٧.
- (٩) المصدر نفسه، ٧٣.
- (١٠) ابراهيم، نوح، مجموعة قصائد فلسطين المجاهدة، يافا: مطبعة الخميس.
- (١١) الزايد، محمود، تاريخ فلسطين ١٩١٤-١٩٤٨، بيروت: دار القدس، ١٩٧٤، ص ٩٣.

## أهم إصدارات المعهد (١٩٩٩-٢٠٠٤)

### كتب توثيقية

- الانتقالية السياسية في الوطن العربي، الجزء الأول: اعتبارات نظرية ومقارنات إقليمية. رونالد سني و آخرون، ٢٠٠١. (إنجليزي)
- الانتقالية السياسية في الوطن العربي، الجزء الثاني: قضايا الانتقالية في التاريخ العربي الإسلامي المبكر. خليل عثامنة وجمال جودة، ٢٠٠١. (عربي)
- الانتقالية السياسية في الوطن العربي، الجزء الثالث: نماذج وحالات معاصرة. هنري لورنس وآخرون. تحرير روجر هيوكوك، ٢٠٠٢. (إنجليزي)
- إعلان المبادئ الفلسطينية - الإسرائيلي. تحرير إبراهيم أبو لغد وآخرون، ١٩٩٥. (إنجليزي)
- تكون دولة العائدين: فلسطين وأرمينيا والبوسنة. تيري هنتش وآخرون، ١٩٩٩. (إنجليزي)
- عمليات حفظ السلام الدولية: نماذج وقضايا. مارك جولدينج. تحرير اللغة العربية أمل جادو، ٢٠٠٠. (إنجليزي وعربي)
- حول إقامة دولة فلسطينية. جان ألان، ٢٠٠٢. (إنجليزي)
- إبراهيم أبو لغد: المقاومة والمنفي والعودة - حوارية مع هشام احمد فراجة، ٢٠٠٣. (إنجليزي)

### المؤتمرات

- المواجهات الثقافية عبر المتوسط: فلسطين وأوروبا. سلمى الخضر الجبوسي وآخرون. تحرير ليلي فيضي وروجر هيوكوك، ١٩٩٦. (إنجليزي وعربي)
- المشهد الفلسطيني. ادوارد سعيد وآخرون. تحرير إبراهيم أبو لغد وآخرون، ١٩٩٩. (إنجليزي)
- فلسطين الجديدة، أوروبا الجديدة. بني جونسون وآخرون، ٢٠٠٣. (إنجليزي)
- قراءة أولية في نتائج وأبعاد الانتخابات الإسرائيلية. احمد سعدي وآخرون، ٢٠٠٣. (إنجليزي وعربي)
- آثار الحرب الأمريكية على العراق دولياً، إقليمياً ومحلياً. أندرياس بورو وآخرون، ٢٠٠٣. (إنجليزي، عربي وفرنسي)
- التاريخ الاجتماعي الفلسطيني - بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات. وقائع مؤتمر ٢٠٠٤.

## سلسلة أوراق استراتيجية

- لكي نتخطى الأزمة: نحو خطة استراتيجية جديدة للعمل الفلسطيني. علي الجرباوي، ٢٠٠١. (عربي)
- سياسة الولايات المتحدة الخارجية والقضية الفلسطينية. فؤاد المغربي، ٢٠٠٢. (عربي)
- خصوصية نشوء وتكوين النخبة الفلسطينية. حسن خضر، ٢٠٠٣. (عربي)
- من الجهاد إلى التعايش السلمي: تطور المفاهيم الإسلامية في السياسة والعلاقات الدولية. رجا بهلول، ٢٠٠٣. (إنجليزي وعربي)
- الثقافة السياسية في فلسطين: دراسة ميدانية. محمود ميعاري، ٢٠٠٣. (عربي)
- الحق السعودي في جنوب النقب الفلسطيني. محسن يوسف، ٢٠٠٣. (عربي)
- أسطورة كامب ديفيد. هيلغى بومغارتن، ٢٠٠٣. (إنجليزي)
- فرص ومعوقات إقامة دولة فلسطينية قابلة للحياة. مارتن بيك، ٢٠٠٤. (إنجليزي)
- اليسار الإسلامي - إطلالة عامة. نصر حامد أبو زيد، ٢٠٠٤. (عربي)
- العلاقات العربية - العربية في ظل الهيمنة الأمريكية. حسن نافعة، ٢٠٠٤. (عربي)

## رسائل الماجستير

- الجنسية والمواطن الفلسطيني. معتز قفيشة، ٢٠٠٠. (عربي)
- الأسرى الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية بعد أوسلو ١٩٩٣-١٩٩٩. عيسى قراقع، ٢٠٠١. (عربي)

## سلسلة أوراق سياسية حول الإصلاح في المؤسسات الفلسطينية

- ١- سبل تفعيل وتطوير الكفاءات الشابة في مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية. سامر سلامة وفاروق الديك، ٢٠٠٣. (عربي)
- ٢- دور ومكانة الكوادر النسائية في المؤسسات الحكومية: إشكالات وتوصيات. مارلين الرضي، ٢٠٠٣. (عربي)
- ٣- دور حركة فتح (الحزب الحاكم) والكوادر الفتحوية العاملة في الوزارات في تعزيز عملية الإصلاح: أسامة البسط ونايف سويطات، ٢٠٠٤. (عربي)
- ٤- المؤسسات الحكومية وغير الحكومية - إشكاليات العلاقة والتنسيق. عزت عبد الهادي وصالح مشاركة، ٢٠٠٤. (عربي)
- ٥- العلاقة بين الهيئات المحلية ووزارة الحكم المحلي - الصلاحيات وإشكالية العلاقة، وليد وهدان ومنيف طريش، ٢٠٠٤. (عربي)

## **Strategic Papers**

- Overcoming the Crisis: Towards a New Palestinian Strategy, Ali Jarbawi: 2001. (Arabic)
- US Policy and the Question of Palestine, Fuad al-Moughrabi: 2002. (Arabic)
- The Emergence and Evolution of the Palestinian Elite, Hassan Khader: 2003. (Arabic)
- From Jihad to Peaceful Co-existence: the Development of Islamic Views on Politics and International Relations, Raja Bahlul: 2003. (English and Arabic)
- Political Culture in Palestine, Mahmoud Me'ari: 2003. (Arabic)
- The Saudi Territorial Entitlement to the Southern Part of the Palestinian Negev, Muhsen Yusef: 2003. (Arabic)
- The Myth of Camp David, Helga Baumgarten: 2003. (English)
- Prospects for and Obstacles to Achieving a Viable Palestinian State, Martin Beck: 2004. (English)
- The Islamic Left Wing-Overview, Naser Hamed Abu- Zaid: 2004. (Arabic)
- Inter Arab Relations Under American Hegemony, Hasan Naf'a: 2004. (Arabic)

## **MA Theses**

- Nationality and Palestinian Citizenship, Mu'tazz Qafishe: 2000. (Arabic)
- Palestinian Prisoners after Oslo 1993-1999, Issa Qaraq: 2001 (Arabic)

## **A Series of Strategic Papers about Palestinian Institutional Reform**

- Ways for Developing and Empowering the Young Staff in the PNA Institutions, Samir Salameh and Frouq Eddik: 2003. (Arabic)
- The Role and Status of the Female Staff in the PNA Institutions: Problems and Solutions, Marline Rabadi: 2003.(Arabic)
- The Role of Fatah Movement (the ruling party) and the PNA Fatah-affiliated Staff in Reinforcing the Reform Process. Osama El Bast and Naef Sweitat: 2004. (Arabic)
- Reinforcing the perspectives and possibilities for coordination between the PNA institutions themselves and the PNA institutions and NGO's, Problems and Recommendation. Izat Abdel Hadi and Saleh Masharqa. 2004. (Arabic)
- Problems encountering municipalities, possibilities of strengthening their connections with the public as well as fortifying its local authority through its relation with the Ministry of Local Governments. Walid Wahdan and Muneef Treish. 2004. (Arabic)

## **The Institute's most Important Publications (1999-2004)**

### **Documentary Books**

- Political Transitions in the Arab World, Part one: Theoretical Considerations and Inter-regional Parallels, Philippe Schmitter et al.: 2001. (English)
- Political Transitions in the Arab World, Part two: Political Transitions in the Early Arab Islamic Period, Khalil Athamine and Jamal Joudeh: 2001. (Arabic)
- Political Transitions in the Arab World, Part three: Contemporary Paradigms and Cases, Henry Laurence et al. Roger Heacock ed.: 2002. (English)
- The Palestinian-Israeli Declaration of Principles, Ibrahim Abu-Lughud et al. Ibrahim Abu-Lughud et al ed.: 1995. (English)
- The Becoming of Returnee States: Palestine, Armenia, Bosnia. Thierry Hentsch et al: 1999. (English)
- International Peacekeeping Operations: Models and Cases, Marrack Goulding. 2000. (English and Arabic)
- On Achieving Palestinian Statehood: Concepts, Ends and Means from the Perspective of International Law, Jean Allain: 2002. (English)
- Ibrahim Abu-Lughod: Resistance, Exile and Return. Conversations with Hisham Ahmed- Fararjeh: 2003. (English)

### **Conferences**

- Cultural Confrontations across the Mediterranean: Palestine and Europe, Alain Joxe et al. Lili Faydi and Roger Heacock ed.: 1996. (English and Arabic)
- The Landscape of Palestine: Equivocal Poetry, Edward Said et al. Ibrahim Abu- Lughod et al. ed.: 1999. (English)
- The New Palestine the New Europe: Selected papers from The February 2001 International Academic Conference, Khalil Nakhleh et al: 2003. (English)
- The Impact of the Israeli Elections on the Local, Regional, and International Levels: A Preliminary Analysis, selected articles presented at the local conference in January 2003. (English and Arabic)
- Implications of the US War in Iraq Globally, Regionally and Locally: selected papers presented at the 8<sup>th</sup> international conference, 2003. (English, Arabic and French)
- Between the Archival Forest and the Anecdotal Trees: A Multidisciplinary Approach to Palestinian Social History: selected papers presented at the 9<sup>th</sup> international conference, 2004. (English and Arabic)



Müller, R.-D. (1991), *Hitlers Ostkrieg und die deutsche Siedlungspolitik. Die Zusammenarbeit von Wehrmacht, Wirtschaft und SS*, Frankfurt am Main, Fischer Taschenbuch-Verlag.

Rössler, M., S. Schleiermacher and C. Tollmien, eds. (1993), *Der "Generalplan Ost". Hauptlinien der nationalsozialistischen Planungs- und Vernichtungspolitik*, Berlin, Akademie Verlag.

Rosenberg, A. (1934) *Blut und Ehre. Ein Kampf für deutsche Wiedergeburt. Reden und Aufsätze von 1919-1933*, München.

RS = *Rocznik Statystyczny* (see below).

RSL = *Rocznik Statystyczny woj. Lubelskiego* (see below).

Torzecki, R. (1989), *Kwestia ukraińska w Polsce w latach 1923-1939*, Krak(w), Wydawnictwo literackie.

(1993), *Polacy i Ukraińcy. Sprawa ukraińska w czasie II wojny światowej na terenie II Rzeczypospolitej*, Warszawa, Wydawnictwo Naukowe PWN.

Wnuk, J. (1975), *Dzieci polskie oskarżają*, Lublin, Wydawnictwo Lubelskie (2<sup>nd</sup> ed.).

Żerelik, R. (1997), "Mniejszość ukraińska w Polsce po II wojnie światowej", in Z. Kurcza, ed., *Mniejszości narodowe w Polsce*, Wrocław, Wydawnictwo Uniwersytetu Wrocławskiego: 43-50.

### **Statistical Sources**

*Mały Rocznik Statystyczny 1939*, Warszawa, Nakładem Głównego Urzędu Statystycznego, Rok X, 1939.

*Rocznik Statystyczny 1947*, Warszawa, Nakładem Głównego Urzędu Statystycznego, Rok XI, 1947.

*Rocznik Statystyczny 1948*, Warszawa, Nakładem Głównego Urzędu Statystycznego, Rok XII, 1949.

*Rocznik Statystyczny woj. Lubelskiego 1959*, Lublin, Nakładem Prezydium Wojewódzkiej Rady Narodowej, Rok I.

- Günther, H. F. K. (1928), *Rassenkunde des deutschen Volkes*, München (12<sup>th</sup> ed.).
- Heiber, H. (1958), "Der Generalplan Ost", *Vierteljahrshefte für Zeitgeschichte*, 6: 281-326.
- Hitler, A. (1933), *Mein Kampf*, München (47<sup>th</sup> ed.).
- Hoensch, J. K. (1990), *Geschichte Polens*, Stuttgart, Ulmer. (2<sup>nd</sup> ed.)
- Jarosz, D. (1998), *Polityka władz komunistycznych w Polsce w latach 1948-1956 a chłopi*, Wydawnictwo DiG, Warszawa.
- Kasperek, J. (1988), *Konspiracyjny ruch ludowy na Lubelszczyźnie 1939-1944*, Warszawa, Ludowa Spółdzielnia Wydawnicza.
- Klukowski, Z. (1958), *Dziennik z lat okupacji Zamojszczyzny (1939-1944)*, Wstęp i redakcja Z. Mańkowski, Lublin, Lubelska Spółdzielnia Wydawnicza ("Wydawnictwo materiałów do dziejów Zamojszczyzny w latach wojny 1939-1944", V).
- Madajczyk, C. (1977), *Zamojszczyzna - Sonderlaboratorium SS. Zbiór dokumentów polskich i niemieckich z okresu okupacji hitlerowskie*. Warszawa, Ludowa Spółdzielnia Wydawnictwa, 2 vol.
- (1988), *Die Okkupationspolitik Nazideutschlands in Polen 1939-1945*, Köln, Pahl-Rugenstein.
- Madajczyk, C. et al. (eds.) (1990) *Generalny Plan Wschodni. Zbiór dokumentów*, Warszawa, Główna Komisja Badania Zbrodni Hitlerowskich w Polsce-Institut Pamięci Narodowej/Instytut Historii Polskiej Akademii Nauk.
- Majer, D. (1981), "*Fremdvölkische*" im Dritten Reich. Ein Beitrag zur nationalsozialistischen Rechtssetzung und Rechtspraxis in Verwaltung und Justiz unter besonderer Berücksichtigung der eingegliederten Ostgebiete und des Generalgouvernements, Boppard am Rhein, Harald Boldt Verlag (Schriften des Bundesarchivs, 28).
- Mańkowski, Z. (1978), *Między Wisłą a Bugiem 1939-1945. Studium o polityce okupanta i postawach społeczeństwa*, Lublin, Wydawnictwo Lubelskie.
- MRS = *Mały Rocznik Statystyczny* (see below).
- Mühlmann, W. E. (1944), *Assimilation, Umvolkung, Volkwerdung. Ein globaler Überblick und ein Programm*, Prag-Stuttgart, Kohlhammer.

## **Bibliography**

- Babiński, G. (1998), *Pogranicze polsko-ukraińskie. Etniczność, zróżnicowanie religijne, tożsamość*, Kraków, Nomos (2<sup>nd</sup> ed.).
- Browning, C. (1992), *Ordinary Men. Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*, London, Harper Collins Publishers.
- Buell, R. L. (1939), *Poland: Key to Europe*, New York-London, Alfred A. Knopf.
- Conte, É. (1995a), “‘Sang et Sol’. L’‘Action Zamość’ et la germanisation des marches de l’Est”, in: Conte, É. & C. Essner, *La Quête de la race. Une anthropologie du nazisme*, Paris, Hachette: 265-344.
- (1995b), “Terre et ‘pureté ethnique’ aux confins polono-ukrainiens”, in É. Conte & C. Giordano, eds., *Paysans au-delà du Mur*, Numéro thématique de la revue *Études rurales* (138-140): 53-85.
- (2001), “Was the Peasantry of the Zamojszczyzna a Creation of Socialism? Ethnic Cleansing and Land Reform in Southeastern Poland”, in: *Poland beyond Communism. ‘Transition’ in Critical Perspective*, M. Buchowski, É. Conte and C. Nagengast, eds., Fribourg (Switzerland), University Press.
- (2002), “L’irréductible Autre et la haine du métissage dans l’Est allemand”, in: Giordano, C. and A. Boscoboinik, eds. (2002), *Constructing Risk, Threat, Catastrophe. Anthropological Perspectives*, Fribourg (Switzerland), University Press: 89-109.
- Conte, É. and C. Essner (1999), “Der Mythos des ‘Mischlings’. Nationalsozialistische Rassenpolitik im ‘Altreich’ und in den ‘eingegliederten Ostgebieten’”, in: *Francia. Forschungen zur westeuropäischen Geschichte* (19.-20. Jahrhundert), 26, 3: 129-145.
- Darré, W. (1929), *Neuadel aus Blut und Boden*, München.
- Dinter, A., (1921 [1917]), *Die Sünde wider das Blut*, Leipzig, (15<sup>th</sup> ed.).
- Drodza, R. (1997), *Droga na Zachód. Osadnictwo ludności ukraińskiej na ziemiach zachodnich i północnych w ramach akcji ‘Wisła’*, Warszawa.
- Essner, C. (2002), *Die “Nürnberger Gesetze” oder die Verwaltung des Rassenwahns*, Paderborn-Wien München-Zürich, Schöningh.
- Grant, M. (1919), *The Passing of the Great Race or the Racial Basis of European History*, New York (2<sup>nd</sup> ed.).

In the absence of any oral testimony relating to the expulsion of Ukrainians from the Zamojszczyzna, all I may forward by way of conclusion is reference to a terse yet poignant secret report discovered by D. Jarosz (1998: 303-304). In the early 1950s, a trickle of evicted Ukrainians, ignoring a firm official ban, returned from the West, confronting those who had occupied their farms a decade earlier. Some of the Polish 'owners' feared that the returnees 'intended to murder' them and formed village self-defence units. Who would not have been impressed by Ukrainians re-entering their former villages on horse-drawn wagons bearing the deterred coffins of their kin who had died in Silesian exile? Interrogated by the secret police, they provocatively asserted their refusal to see their dead rest in 'German lands' (ibid.: 303). Although the authorities did all in their power to impede any major reflux of dispossessed Ukrainians, compromises were struck, allowing some returnees to settle on state farms or cooperatively managed lands, indeed compensating some Polish 'owners' to vacate their holdings (ibid.: 304).

For Poles of this region to 'see' the Ukraine again, however, might require more than a 'simple' change of regime (cf. Babiński 1998). In Zamość, neighbouring Ukrainian Volhynia still seems to be a 'non-place', a name relegated to the past. Jews and Ukrainians tend to be overlooked as 'non-peoples', as those who are simply no longer there. Ukrainian day-migrants, pejoratively designated as 'ants', are often viewed as paupers practising shady, small-scale trans-border trade in the 'plastic-bag economy' or engaging in undeclared work employment. The events of 1939 to 1948 go some way to explain the roots of this deep blindness. Subsequently, national-communist propaganda and forced assimilation policies did much to preserve stereotypes (Żerelik 1997). Today, the lack of appropriate restitution laws in Poland impedes any significant return of Ukrainian farmers or their heirs to, for example, Hrubieszów. But yet another factor blocks cross-border dialogue, namely the eradication of private farming in Soviet Volhynia, where middle-size units had been more prevalent than in the Zamojszczyzna before 1939. As many Ukrainian state and collective farms fell apart after 1991, agricultural workers, deprived of the very concepts of 'earth' or 'property', had neither the farmer's savoir faire of their parents nor the financial wherewithal either to maintain (not necessarily inefficient) large units or to found smaller, family-based ones. Today, many town and country-dwellers are reduced to cultivating makeshift gardens to preserve a minimally adequate diet. Were ethnic prejudice by miracle to wane, the farmers of the Zamojszczyzna could, by applying their proven know-how beyond the iron bridge that straddles the Bug, contribute significantly to render to this river its onetime neutral status, namely that of a calm water course irrigating one of Europe's potentially richest agricultural areas.

re-formation of rural society in the Zamojszczyzna as it had existed until 1939. In this region, it ratified the violent transformation of ethnic, religious and class relationships initiated by the Nazi invaders, pursued through the Polish-Ukrainian war (the term is not too strong) and brought to a brutal conclusion by concerted action of the Polish communist and Soviet authorities. Given the vast scale and political sensitivity of successive evictions of Polish and Ukrainian smallholders between 1942 and 1947 along the Bug, it is difficult to assess just how land redistribution proceeded in the villages of the Zamojszczyzna after 1944.<sup>9</sup> Available figures concern the pre-1974 Lublin voivodship as a whole and mask the local effects of ethnic cleansing. 'Former German holdings', minimal in area, are accounted for, but 'former Ukrainian holdings' are not even mentioned (RS 1947, 1948, 1949; RSL 1959).

Not surprisingly, my attempts to approach this issue along the Ukrainian border during the early 1990s (some 45 years after the events considered) met with at best elusive responses. This is understandable insofar as property reallocation was undertaken by official agencies and benefited foremost state enterprises or cooperatives rather than individuals. In addition, however, mention of this period can revive painful memories among certain elderly farmers suspected, rightly or wrongly, of participation in German colonisation schemes, of acquiring 'abandoned' Jewish or Ukrainian landed property and real estate<sup>10</sup> or of supporting the in-coming communist authorities in order to gain better access to reappropriated land. Last but not least, this theme conjured up lingering rivalries between members of pro- and anti-Communist resistance groups (e.g. Kasperek 1988), which were voiced more openly after 1989. In sum, many aspects of oral tradition were both shunned by actors and muzzled by official history in Poland (until the late 1980s) and in the Soviet Ukraine (until 1991). To reconstitute it so long after the events is scarcely possible. Ukrainian historiography can, however, now serenely address the still highly sensitive issues discussed above thanks to recently opened communist archives in the newfound climate of Polish-Ukrainian understanding (Babiński 1998) but is still hampered by the disappearance of witnesses and documents as well as the activism of neo-nationalists on both sides of the border. Recent Polish historiography has, for its part, somewhat 'devalued' research on the Zamojszczyzna, long used by socialist historians to stress the eminent role Polish communist partisans, while giving ever greater attention to non-communist resistance movements and Soviet crimes against Poles. In the longer term, a balance will doubtless be found.

---

<sup>9</sup> I consider the effects of socialist land reform and the post-war history of the Zamojszczyzna in Conte 2002.

<sup>10</sup> Jewish property consisted mainly of town houses, shops and workshops. These were mainly taken over by official housing agencies and reallocated. Former owners are sometimes identified through the profession they exercised. Ukrainian property consisted mainly in small farms, many of which were merged into state farms. Ukrainian farmers quickly disappeared from memory, since farm workers employed on their land were newcomers who rarely had known the former owners.

The Zamojszczyzna, thus bled to the bone, was, in 1944, one of the first regions to be administered by the Soviet-backed Polish Committee of National Liberation, known as the 'Lublin government'. Yet, the latter's authority remained nominal in some areas. Even as the war finished, the UPA fought on against both Poles and Soviets. Likewise, anti-communist Polish resistance groups remained active for more than two years after the Nazi withdrawal, a fact long officially silenced. The 'pacification' programme known as Operation Vistula, undertaken in 1947, was the concerted Polish-Soviet response to the dual challenge of 'nationalist reactionary' forces. By this time, massive 'voluntary exchanges of population' involving both Ukrainian natives of Poland and Poles resident in the now Soviet western Ukraine had already deprived the UPA as well as remaining anti-communist Polish resistant fighters of their rural base in the annexed eastern provinces of Volhynia, Polesia and eastern Galicia. Official sources report that close to half a million Ukrainians were thus banished from their Polish birthplaces to the USSR (Jarosz 1998: 302), whereas almost 800,000 Poles were 'repatriated' from the USSR between 1944 and 1947 (RS 1949: 26) and resettled mainly in the 'retrieved' western and northern territories taken from Germany, far from traditionally Ukrainian-populated lands along the River Bug (Drodza 1997).

According to the State Repatriation Office, 131,000 of 193,000 the Ukrainians expelled from Lublin voivodship were natives of the Zamojszczyzna.<sup>8</sup> This represented one quarter of the area's total pre-war population and about one third of its rural population. Official statistics published at the time make no mystery of the facts and even offer plausible if unverifiable counts of deportees. Most affected were the two districts along the former 'ethnic' and henceforth Polish-Soviet border: in Tomaszów Lubelski, 41,000 Ukrainians (11,000 families) were evicted, representing 35% of the registered population. In Hrubieszów, 69,000 Ukrainians (19,000 families) were forced out, that is 56% of the registered population! In this area, the effects of Nazi 'racial purification' were thus compounded by those of the exhaustive 'ethnic cleansing' conducted by the new Polish government at Soviet behest. By 1947, the Jews having been exterminated and the Ukrainians herded across the Bug to the USSR, to Pomerania or Silesia, the Zamojszczyzna had lost, on these sole accounts, 40% of its pre-war inhabitants (RS 1948: 29).

Under the circumstances, the land reform decreed by the provisional Polish government at Lublin in autumn 1944 may hardly be viewed as a perfunctory administrative procedure. Rather, this founding act of the People's Republic heralded no less than a

---

<sup>8</sup> The 1940 Ukrainian population of Lublin province was estimated at 438,000 persons, 150,000 of whom declared themselves to be primarily Poles despite the negative consequences such a stand was liable to have under the German occupation (Conte 1995a: 311-312).

part. After the German capitulation, his foster parents asked him to stay on and help them run their business. An emotional bond had emerged. Yet Tadeusz K. chose to return. With some Polish comrades, he trekked back towards Galicia, encountering through Silesia columns of German refugees fleeing towards the advancing Red Army. On arrival, Tadeusz K. could rejoice. Although one of his brothers had perished, his parents were alive. At this juncture, the narrative stops.

Indeed, the war's end was a painful period for many of the approximately 2,900,000 Poles who were Germanised. As if this humiliation had not sufficed, the new socialist government imposed a procedure of 'repolonisation'. This process is situated in a grey zone of both oral tradition and official history. They are just now coming to light, however discreetly. For retrospective assessments of 'patriotism under the Occupation' were not always devoid of petty vengeance or of political account settling. Tadeusz K. was not personally affected, however, for he was one of the 'children of the *Zamjosczyzna*', a group which the Party extolled for decades in order to epitomise the horrors of Nazi occupation. Some years later, he visited his foster parents in the German Democratic Republic. By then, he had forgotten German.

## **The Polish-Ukrainian Conflict**

Not only Poles were absorbed by the German war machine. Young Ukrainians were enlisted into Nazi auxiliary forces which, after the defeat at Stalingrad, found it increasingly difficult to recruit the required troops in the Reich. Dispossessed Polish farmers henceforth targeted not only German colonists but Ukrainian 'collaborators' and 'profiteers'. In March 1943, Ukrainian irregulars, armed by the Wehrmacht, launched an all-out offensive against remaining Poles along the banks of the Bug. Thus began a four-year armed conflict between Poles and Ukrainians that raged as a war within the war. At once, communist and non-communist Polish resistance movements, widely supported by the rural population, gained in momentum. The partisans avenged the atrocity at Kitów, referred to above, and the Germans responded by Operation Wehrwolf, reinforced by the Ukrainian SS division 'Galizien'. 'Wehrwolf' captured and 'processed' 36,000 Poles, 26,000 of whom were deported to Germany or interned in the Government General. Inter-ethnic hatred was exacerbated as the Polish Peasant Battalions, the People's Guard and the Home Army confronted the Ukrainian Insurrectional Army (UPA). Horror reached its peak at Sahryń, a village near Hrubieszów, where the UPA massacred between 500 and 800 Poles. Polish reprisals were no gentler. Both parties, neighbours of yesterday, many of whom had peacefully intermarried in years past and tilled adjacent fields, now adopted Nazi methods to banish each other from the land their ancestors had shared.

all these phenomena together may play a role, rendering the 'factual' interpretation of victims' oral testimony highly delicate. Yet, without them, the punctilious relations of powerless but distanced observers such as Klukowski or of perpetrators under threat of a death sentence such as Scharrenberg would not acquire the same contextual potency. This perspective is only given, however, for the accounts of those actors whose oral testimony was recorded under judicial control and retrieved through academic endeavour after the war. Jews and Ukrainians remain silenced actors. The present analysis can hence only be partial.

Indeed, the contextualisation of Polish accounts is subject to the availability of German records that inform us as to the broader intentions of the Nazis. The persecution of Polish children referred to so graphically by both Denisów and Wdzięczny responds in part to a secret programme to 'retrieve German blood' devised by Himmler of which these men could not, at the time, have been aware. The rumours concerning the liberation of certain children, while not 'correct', were hence not without some foundation. The 'liberation' or capture of children masked a vast operation under the guise of which Polish babies or youths judged to be of 'sound Nordic racial stock' were kidnapped and given for adoption to politically dependable German families in the Reich. In all, some 4,500 children of the Zamojszczyzna (and over 200,000 in Poland at large!) were subjected to such forced Germanisation. Having been placed in institutions under false names, they were then adopted under a third name, subsequently making it almost impossible for the youngest among them to trace their true identity. Many live on today in Germany, not knowing that they do not know who they really are.

One child thus taken from his family, at age 14, was Tadeusz K., who was kind enough to relate his experience to me in detail in Zamość in May 1991. Sent to Dresden, he was received by an SS officer who instructed him as to his new and 'privileged' status. Declared 'Nordic by race', he would be treated as a German in all respects. Too old to be adopted under a false name, he was entrusted to a baker's family and conditionally granted German nationality. He was sent to an ordinary German school and followed a baker's apprenticeship 'at home'. His headmaster admonished his co-disciples to treat him as one of their own and help the newcomer become fluent in German. For a Pole, albeit of certified racial extraction, this was all a great honour. Tadeusz K. recognised having been well-treated by his foster parents. No incident with the authorities upset this quiet process of acculturation and social integration. All went smoothly until it was suggested that he should join the Hitler Youth, a measure destined to facilitate his induction into the *Wehrmacht* and his confirmation as a full citizen of the Reich at age 18. Tadeusz K. responded by procrastination. The course of the war freed him from any further dilemma. The terrible night came: Dresden was bombed and burnt to the ground, but the northern suburb where Tadeusz K. lived was spared in